الشرق الإسلامي

قبيل الغزو المغولي

تأليف

حافظ أحمد حمدي

ليسانس في الآداب ، وماجستير في الآداب بدرجة جيد جداً
ودبلوم معهد التربية العالي

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

١٩٥٠

مطبعة الاعتماد بمصر

الشرق الإسلامى

قبيل الغزو المغولى

تأليف

حافظ أحمد حمدى

ليسانس فى الآداب ، وماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا

ودبلوم معهد التربية العالى

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

١٩٥٠

مطبعة الاعتماد بمصر

الإهداء

إلى من كان لهم فضل تنشئتي
وإلى من كان لهم فضل تشجيعي

تقديم الكتاب

بقلم

سعادة الدكتور حسن ابراهيم حسن
مدير جامعة محمد على
وأستاذ التاريخ الإسلامى ، والعميد السابق لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

فى شهر يناير سنة ١٩٤٩ قدمت رسالة « الدولة الخوارزمية والمغول » التى نال بها تلميذى الأستاذ حافظ أحمد حمدى درجة الماجستير فى الآداب من جامعة فؤاد الأول بتقدير جيد جداً . ورجوت أن يكون ذلك البحث بداية لأبحاث أخرى فى التاريخ الإسلامى .

ويسرنى أن أقدم له اليوم كتابا لا يقل أهمية عن الرسالة التى قدمها من قبل ، من حيث مادته وطريقة بحثه ، هو : « الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى » ، ويشتمل على خمسة أبواب وخاتمة . وقد أفرد المؤلف الباب الأول للكلام عن حال الخلافة العباسية قبل العصر السلجوقى وبعده ، وبيّن ما كان للنفوذ الفارسى والتركى من أثر فى ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وضعف نفوذ الخلفاء فى أقاليم الدولة العباسية المتداعية ، ولا سيما قبيل الغزو المغولى على يد جنكيزخان . ومما أعجبنى فى هذا الباب تصوير الحضارة الإسلامية فى العصر السلجوقى ، ولا سيما فى عهد ملكشاه ، ذلك العهد الذى يعد بحق العصر الذهبى للدولة السلجوقية ، واستعان على تصوير هذه الحضارة بكثير من اللوحات الفنية القيمة .

وفى الباب الثانى قسم المؤلف النزاع بين أبناء البيت السلجوقى إلى ثلاثة أدوار ، صوّر فيها ما كان لذلك النزاع من أثر فى ضعف الدولة السلجوقية بوجه خاص وفى ضعف الدولة العباسية بوجه عام ، وبيّن فى جلاء كيف اتخذ الخلفاء العباسيون فى ذلك العصر من ضعف السلاجقة فرصة لمحاولة استرداد ما كان لهم من نفوذ وسلطان . وفى الباب الثالث

عالج المؤلف العوامل التى أدت إلى نجاح الدعوة الإسماعيلية فى بلاد المشرق وما بذله الحسن بن الصباح ، داعى دعاة الإسماعيلية فى فارس ، من جهود متصلة فى تكوين هذه الطائفة حتى استفحل أمرها وأصبحت خطراً يهدد كيان كافة أرجاء الشرق الإسلامى تقريباً ، كما صوّر جهود كل من السلاجقة والخلفاء العباسيين فى الحد من نفوذ الإسماعيلية الذى وضع المغول بقيادة هولاكو ، حداً له قبيل سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وقد بحث المؤلف فى الباب الرابع من هذا الكتاب كيف قامت دول الأتابكة فى دمشق وحلب والموصل والجزيرة ودياربكر وأرمينية وأذربيجان وكرمان وخوارزم وغيرها ، نتيجة لضعف الدولة السلجوقية . وفى الباب الخامس عالج المؤلف حالة مصر والشام قبيل الغزو المغولى ، فصوّر الصراع بين الصليبيين وأمراء المسلمين وبخاصة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى وخلفائه ، وبيّن ما كان لذلك الصراع من أثر فى ضعف كل من بلاد الشام ومصر إبان غزوات المغول ، وخلص من ذلك إلى الحديث عن غزو كل من جنكيزخان وهولاكو للبلاد الإسلامية ، وأجاد فى وصف نظم المغول من الناحيتين الاجتماعية والحربية ، وضعف حالة المسلمين إبان ذلك الغزو ، وما كان لذلك من أثر فى سرعة زوال الدولة العباسية .

ولا شك أن الأستاذ حافظ أحمد حمدى قد سار فى هذا البحث على منوال بحثه الأول ، من حيث توخى الدقة فى أسلوب علمى حديث مبنى على دراسة عميقة للمصادر الأصيلة العربية والفارسية والأوربية ، واستطاع بذلك أن يضيف إلى العلم حقائق علمية طريفة كشفت عن كثير من المسائل التى كانت لا تزال غامضة مبهمة . وأرجو أن ينال هذا البحث الجديد ما ناله بحثه الأول من تقدير القراء وثنائهم ، لما بذل المؤلف من جهد وأنفق من عناء ، فله من أجل ذلك كل ثناء وتقدير ؟

القاهرة : ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٠ — حسن إبراهيم حسن

مقـــدمة

فى مستهل القرن السابع الهجرى « الثالث عشر الميلادى »، أغار المغول على بلاد الشرق الإسلامى فأتوا على كل ما صادفهم فيه، ثم عادوا إلى حيث جاءوا وقد كلل مسعاهم بالنجاح. والعـــوامل التى ساعدت المغول على ما أحرزوه من نصر، كثيرة ومتعددة، فقد ترجع انتصاراتهم إلى قوة روحهم العسكرية واهتمامهم بتنظيم جيوشهم، فضلا عما استخدموه من آلات الحرب. وقد يكون الفقر الذى كان يعانيه المغول فى وطنهم الأصلى هو الذى أكسبهم ذلك الحماس فتطلعوا إلى غنم يأتيهم من البلاد التى اندفعوا إليها. ومن المحتمل أن يكون ذلك كله شيئاً قليلا بالنسبة إلى ما صادفوه فى أقاليم الشرق الإسلامى من انحلال سياسى، واضطراب اقتصادى، وفوضى اجتماعية، بحيث يمكن القول إن الشرق الإسلامى كان فى الوقت الذى عوّل المغول على غزوه فى طور الاحتضار. وإن الانحلال السياسى الذى صادفه المغول فى بلاد الشرق الإسلامى هو ما قصدت تصويره فى هذا الـكتاب.

صادف المغول خلافة فقـدت سلطانها القديم بحيث أصبح نفوذ الخلفاء قاصراً على العراق العربى، ومع ذلك فقد كان نفوذهم فى هذه الرقعة الضيقة أيضاً لا يعدو أن يكون نفوذاً دينياً، إذ كانت العناصر الفارسية والتركية، فضلا عن الحركات الدينية الهدامة، قد حدَّت تدريجياً من نفوذ الخلفـاء ففقدوا نفوذهم السياسى فى أقاليم الدولة العباسية، بل وفى بغداد نفسها. وقد تعاقب على حكم هذه الأقاليم عدد كبير من الحكام والأسرات تنازعوا السلطة فيما بينهم دون أن يقيموا وزناً للخليفة العباسى فى بغداد. وقد نتج عن ذلك كله أن أصبحت البلاد الإسلامية عندما تطلع المغول إلى غزوها أشبه ما تـكون بأشلاء متناثرة.

وإذا كانت قد ظهرت هناك بعض محاولات لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم ، فإنها كانت محاولات فاشلة ، ماكانت تقوم وتنهض حتى يقضى عليها .

لست هنا فى معرض التحدث عن موضوع الكتاب ، فإنى أترك ذلك لتقدير الفاحص ، كما أترك جانباً الكلام عن المصادر التى استقيت منها مادة البحث ، ولكن من المهم أن أذكر أن دراسة حالة الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، يقتضى دون شك تصوير حال هذه البلاد من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وإنى لأرجو أن يكون ذلك موضوع بحث مستقل .

وإذا كنت قد تعرضت فى هذا الكتاب لتاريخ عدد كبير من الأسرات والحكام والأتابكة الذين توالوا على حكم أقاليم الشرق الإسلامى واستقل بعضهم بحكمها ، فقد حرصت على أن أتتبع نسب هؤلاء الحكام والأتابكة ، فذيلت الكتاب بجداول تمثل نسب هؤلاء جميعاً ، وأرجو أن تكون عوناً للقارىء على تتبع مجريات الحوادث السياسية التى تناولها البحث .

وبعد ، فإنى أتقدم بجزيل الشكر إلى حضرة أستاذى الجليل الدكتور حسن ابراهيم حسن ، مدير جامعة محمد على وأستاذ التاريخ الإسلامى ، الذى كان له فضل توجيهى إلى دراسة التاريخ الإسلامى ، والذى غمرنى بكثير من فيض تشجيعه وإرشاده ، وأشكر له بصفة خاصة تفضله بمراجعة هذا الكتاب . كما أتقدم بخالص الشكر إلى حضرة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن ، عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وأستاذ الآثار الإسلامية بها ، فقد تفضل فأمدنى ، من مكتبته الخاصة النفيسة ، بكثير من اللوحات الفنية التى لها أهميتها التاريخية البالغة .

والله أرجو أن يوفقنى إلى ما أنا بسبيله من أبحاث متواضعة ، وما توفيقى إلا بالله ؟

القاهرة : أول أغسطس سنة ١٩٥٠ — حافظ احمد حمدى

محتويات الكتاب

الباب الأول

حالة الخلافة العباسية

الباب الثانى

النزاع بين أبناء البيت السلجوقى

الباب الثالث

استفحال شأن طائفة الإسماعيلية

الباب الرابع

قيام دول الأتابكة

الباب الخامس

حالة مصر والشام

خاتمـــة

حول الغزو المغولى

الجداول

الخرائط

اللوحات

مقابل صفحة

المصادر

الكشاف

الباب الاول

حالة الخلافة العباسية

(ا) الخلافة العباسية قبل العصر السلجوقى

نفوذ الفرس السياسى فى الدولة العباسية. نفوذ الفرس الدينى. نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية. انتقال مركز الخلافة إلى سامرا . إعادة مركز الخلافة إلى بغداد . تقلص نفوذ الخلفاء فى أقاليم الدولة العباسية . نفوذ البويهيين فى بغداد . حالة أقاليم الدولة العباسية فى عهد البويهيين .

(ب) الخلافة العباسية فى العصر السلجوقى

ظهور السلاجقة ودخولهم بغداد . العصر الذهبى للدولة السلجوقية . انحلال الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه. ضعف مركز الخلافة فى العصر السلجوقى . حالة أقاليم الدولة العباسية فى أواخر العصر السلجوقى .

الباب الأول

حالة الخلافة العباسية

(ا) الخلافة العباسية قبل العصر السلجوقى[1]

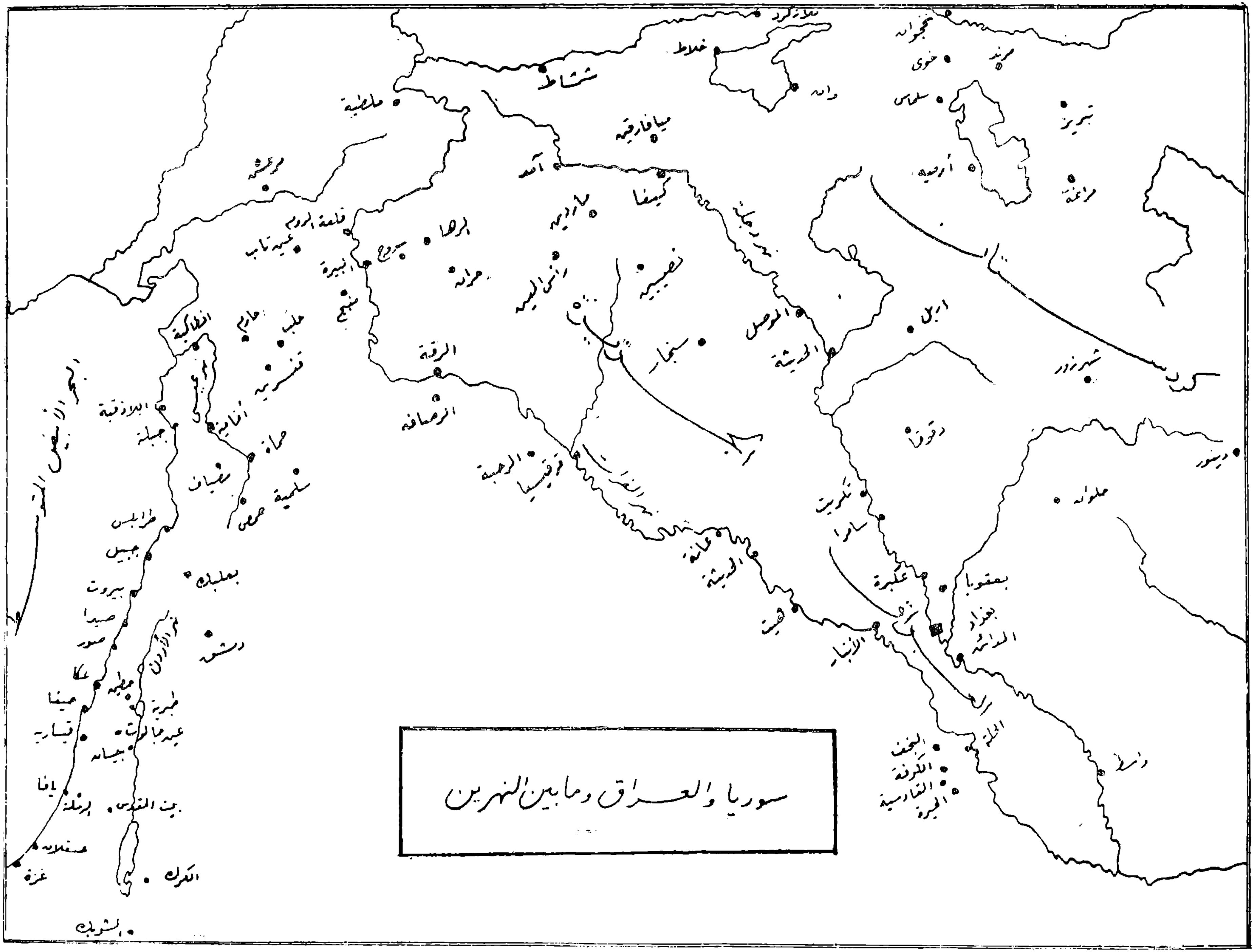
من الصعب أن نشرع فى تصوير حال الشرق الإسلامى عامة والخلافة العباسية خاصة، عندما هم المغول باجتياح غربى آسيا، من سنة ما أو من حادث تاريخى معين، إذ أن ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف، وما أصاب الشرق الإسلامى من محن، كان وليد حوادث كثيرة متتابعة، سياسية ودينية واجتماعية، نشأت مع الخلافة العباسية منذ قيامها؛ وليس هناك من شك فى أنه من أعسر العسر أن نفصل هذه الحوادث بعضها عن بعض، إذ أن اللاحق منها وليد السابق. وقد عمدت هنا إلى أن أتتبع، فى إيجاز، تلك الحوادث والظروف التى أدت إلى إضعاف الخلافة العباسية ثم زوالها فى النهاية. وقد قسمت الكلام على هذا الموضوع قسمين: تكلمت فى القسم الأول عن حالة الخلافة العباسية حتى دخول السلاجقة بغداد، وتكلمت فى القسم الثانى عن الخلافة العباسية فى ظل الحكم السلجوقى.

* * *

نعلم من دراستنا للتاريخ الإسلامى بوجه عام وتاريخ بنى العباس بوجه خاص، أن الدولة العباسية قد نشأت نشأة فارسية، إذ أنها «قامت على

(١) يكتب هذا الاسم بطرق مختلفة: فنراه فى غالبية المراجع العربية «سلجوق»، ونراه فى بعض المراجع العربية الأخرى «سلجق» ومن هذه المراجع كتاب تاريخ دولة آل سلجوق لعماد الدين الأصفهانى والذى اختصره الفتح بن على البندارى، إذ على الرغم من ذكر حرف «الواو» فى عنوان الكتاب فإن هذا الحرف قد حذف من صفحاته. ويكتب هذا الاسم أيضا «سلجك» كما جاء فى كتاب ديوان لغة الترك لمؤلفه محمود الكاشغرى. ويكتب أيضا «سلچوق» كما وجدته فى كثير من المراجع والكتب التركية، وأذكر على سبيل المثال منها كتاب أورتا آسيا لبارتولد Barthold، وكتاب تاريخ گلشن معارف لمحمد سعيد، وكتاب عثمانلى تاريخى لأحمد راسم.

عن كتاب Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie



خريطة ١

أكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لمبدأ المساواة الذى أقره القرآن والسنة . »[١] . لذلك نجد العباسيين الذين كانوا يدينون للفرس بقيام دولتهم ، يتشيعون لكل ما هو فارسى ، فلا نعجب بعد ذلك إذا وجدنا العنصر الفارسى يسيطر على كل ناحية من نواحى الحياة فى الدولة ، إذ بقدر ما كان العباسيون ينحرفون عن العنصر العربى ، كانوا يقربون العنصر الفارسى ، فاعتمدوا على الفرس فى تصريف شئون دولتهم ؛ وليس أدل على ذلك من أن الوزارة ظلت فى العصر العباسى الأول ، احتكارا للموالى. ومن أقرب الأمثلة على صحة ما نقول ، ما كان من أمر أسرة البرامكة التى تنتمى إلى أصل فارسى ، سواء أكان ذلك من ناحية العنصر أم من ناحية الدين ، فقد كان جدهم « برمك » فارسى الأصل ، يذكر البعض أنه مجوسى الدين من عبدة النار[٢] ، ويذكر فريق آخر من المؤرخين المحدثين أنه كان يدير معبداً بوذياً فى مدينة بخارى[٣]. وقد بلغت هذه الأسرة أوج عظمتها فى عهد الرشيد الذى ترك لوزيره يحيى بن خالد البرمكى كل ما يتعلق بأمور الدولة من تولية الحكام وعزلهم ، بل ترك له شئون الدولة المالية من دخل وخرج ، وبلغ من اتساع نفوذ هذه الأسرة وعظم سلطان أفرادها ، أن الأموال كانت لا تصل الرشيد إلا عن طريقهم[٤]. ومما يدل على أن أمور العباسيين قد انتقلت إلى أسرة البرامكة ، وأن أفراد هذه الأسرة أخذوا يصرفون شئون الدولة دون الرجوع إلى الرشيد نفسه ، أن جعفرا البرمكى أعطى أحد أفراد الأسرة العباسية وهو عبد الملك بن صالح ألف ألف

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٦٣ .

(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٧٣.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 294.

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٥١.

درهم[١] ، وولى ابنه مصر ، بل وزوج هذا الابن من ابنة الرشيد ، كل هذا دون أن يعلم الرشيد نفسه[٢] . وإن أغرب مافى هذه الأمور الثلاثة هو زواج ابنة الرشيد دون علم منه ، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة الأسرة البرمكية الفارسية .

كذلك ظهر التأثير الفارسى فى الحركات الدينية التى امتلأ بهـا العصر العباسى الأول والتى لبست ثوباً سياسياً ، وأراد بها زعماؤها القضـاء على العنصر العربى وإعادة التراث الفارسى القديم ، مما شغل الخلفاء العباسيين فى هذا العصر . ومن هذه الحركات ، حركة « الراوندية »[٣] التى ظهرت فى عهد الخليفة المنصور. وترجع تعاليم هذه الحركة إلى التعاليم الفارسية القديمة التى تقوم على تقديس الملوك وتأليههم وإباحة المحرمات . لذلك لا نعجب إذا رأينا أتباع هذه الحركة يقدسون الخليفة المنصور ويرفعونه إلى مصاف الآلهة. ولم يأل هذا الخليفة نفسه جهدا فى القضاء على هذه الفئة لمنافاة مبادئها مبادىء الدين الإسلامى ، ولأن السكوت عليها كان من شأنه إثارة حفيظة العرب عامة[٤] .

وقد ظهرت حركة أخرى مماثلة لحركة الراوندية ، من حيث أصلها الفارسى تسمى « المقنَّعية » ، نسبة إلى زعيمها المقنع الذى اتخذ لنفسه وجهاً من ذهب، وادعى الألوهية ، وأسقط الزكاة والصوم والحج، وأباح الأموال والنساء ، ونشر تعاليم مزدك ، ودعا الناس إلى عبادته ، فلما كثر أتباعه وأصبحوا يهددون الدولة لم يتردد الخليفـة المهدى فى إبادتهم[٥] . كذلك

---

(١) كان الدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا ، وعلى هذا الأساس يوازى هذا المبلغ حوالى أربعين ألفا من الجنيهات المصرية. ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أن الدينار كان يساوى فى ذلك الوقت اثنى عشر درهما .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٨٢.

(٣) سميت حركة الراوندية بهذا الاسم نسبة إلى مدينة « راوند » القريبة من أصفهان ، وكانت مهد دعوتهم .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ص ٩٣ـ٩٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

نجد جماعة « الخُرَّمية »[1] أتباع بابك الخرمى، الذى تعد حركته استمرارا لحركة الراوندية والمقنعية . وكان أهم أغراض هذه الجماعة تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس . وكان أتباع هذه الحركة إباحيين ، نادوا بالمحرمات ودعوا إلى الاشتراكية فى النساء ، وقد تم القضاء على بابك فى عهد الخليفة المعتصم[2] . ثم نجد فئة « الزنادقة » ، وتقوم حركتهم على نوع من الديمقراطية الفاسدة التى تبيح المحرمات . وقد أصبحت هذه الفئة خطراً على الدولة والدين معاً ، إذ أن أتباعها كانوا لا يتبعون الديانة المانوية فحسب ، بل منهم من اتبع الديانة المزدكية الإباحية ، لذلك اهتم الخلفاء بهذه الحركة ، ونكل الخليفة العباسى المهدى بأتباعها .

ولم تكن هـــذه العناصر الفارسية هى كل ما أدى إلى الاضمحلال التدريجى للدولة العباسية ، بل نجد أن العنصر التركى الذى بدأ نفوذه يتغلغل فى جسم الدولة قد لعب دوراً كبيراً فى هـذا الشأن . ومن الغريب أن الخلفاء العباسيين قد آثروا هذا العنصر على سواه من العرب والفرس ، فكانت النتيجة أن زادت حالة الدولة العباسية سوءاً .

كانت المنطقة الواقعة فى شمال بلاد الصين منذ بدء التاريخ ، عبارة عن ينبوع تخرج منه القبائل الرحل التى لا تلبث أن تتجمع فى شكل هجرات عامة تكتسح ماجاورها من البلاد تحت تأثير عوامل عدة . وكان الموطن الأصلى للعناصر التركية فى جبال ألتاى، فى منطقة تدعى كين شان Kin-Shan [3]، وكانت تعيش بطبيعة الحال عيشة جافة قوامها الرعى والتنقل من مكان إلى مكان سعياً وراء الرزق القليل من العشب ويحدث أن تتجمع بعض القبائل التركية وتتوحد بفضل مجهود شخصية قد تبرز فى وقت ما ، ثم تندفع فى هجرة

---

(١) يقال إنهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى « خرما » امرأة مزدك .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج٢ ص١٠٣ — ١٠٦ .

(٣) Czaplicka : The Turks of Central Asia, p. 71.

عامة تكتسح الأقاليم المجاورة نتيجة لعوامل طبيعية واقتصادية ، فقر يدفعها من الخلف وجشع مادى يستميلها من الأمام . وقد يكون تكاثر عددها وعدم تحمل البيئة الأصلية لهذا العدد المتزايد من السكان ، من أكبر العوامل التى تؤدى إلى هجرة هذه القبائل . وقد ينتهى بها المطاف إلى حضارة قديمة تبهر أبصارها فتندفع إلى أراضيها ، فى جاعات تدفع بعضها بعضا . وكان الأتراك منذ نشأتهم صناعاً مهرة ، ولعل ذلك يرجع إلى غنى جبال ألتاى بثروتها المعدنية ، مما ساعدهم على الفتح والغزو والنهب، فاستطاعوا فى أوائل القرن السادس الميلادى أن يخضعوا آسيا الوسطى بما أوتوا من قوة ، أكسبتهم إياها ثروتهم المعدنية ومعيشتهم التى تقوم على التقشف . وقد انفصل هؤلاء عن الأتراك فى شرق آسيا ووقعوا تحت سيطرة الثقافة الإسلامية حين خضعت بلاد فارس للمسلمين[١] . وهكذا نرى أن سيل الأتراك الجارف كان لاينقطع فى سيره نحو الغرب حيث الأراضى المتاخمة للبلاد الإسلامية . وكان الأتراك يتنقلون من جهة إلى أخرى محاولين إحداث ثغرات ينفذون منها إلى أراضى الدولة الإسلامية . فنجد فى أواخر القرن الثامن الميلادى قبيلتين تركيتين على حدود بلاد ما وراء النهر : قبيلة الكارلوك[٢] فى أعالى نهر سيحون ، وقبيلة الغز فى شمالها ، كما نجد جاعة القراخانية Kara Khanids فى مدينة كاشغر وحولها ، وهم فرع من قبائل الترك وإن كان أصلهم غير معروف على وجه التحديد ، على أنه يقال إنهم دخلوا فى حظيرة الإسلام فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)[٣].

(١) Czaplicka : The Turks of Central Asia, p. 72.

(٢) ذكر لى الأستاذ المستشرق ڤلاديمير مينورسكى V. Minorsky الذى كان من حسن حظى أن اجتمعت به مرارا أثناء زيارته لمصر وافدت من علمه الكثير ، ذكر لى أن أسماء القبائل التركية تكتب بطرق مختلفة تبعا لاختلاف اللهجات بين هذه القبائل . مثال ذلك قبائل الكارلوك التى نحن بصددها فتكتب بالطرق الآتية : خَلُّخ ، خَرلُخ ، خَرلُق ، قارلوق .

(٣) Ross : The Empire of the Seljuk Turks, p. 2779. (The Universal History of the World, vol. 5.)

وكان المسلمون يخطفون الأطفال من الأتراك المقيمين على الحدود ويسوقونهم إلى أسواق النخاسة ، فرأى الخلفاء فيهم جمال الخلقة، فأكثروا منهم فى بلاطهم وعهدوا إليهم بوظائف الخدم وتنظيم القصور ، بل نجد من بينهم من بلغ أعلى المراتب فى الجيش وفى البلاط[١] .

ويعتبر الخليفة المعتصم أول من ألقى بهؤلاء الأتراك فى ميدان السياسة فى الدولة العباسية ، وربما كان فى ذلك متأثراً بأمه التركية الأصل، فاستعان بالأتراك وأهمل العنصرين العربي والفارسى[٢] . وكان المعتصم يرسل فى شرائهم من نواحى سمرقند وفرغانة ، ثم يلبسهم أحسن الملابس وأثمنها[٣]. والمهم أن الخليفة المعتصم « اتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شيء »[٤] .

ومما يدل على عظم اعتماد المعتصم على هؤلاء الأتراك ، أن حرسه الخاص بلغ أربعة آلاف منهم[٥] . وقد أخذ نفوذ الأتراك يزداد فى الدولة بخطوات واسعة ، حتى أن الخلفاء كانوا يقطعونهم الولايات الإسلامية نظير جزية معينة يؤدونها لدار الخلافة ، على نحو ما كان متبعاً فى نظام الإقطاع فى أوروبا فى العصور الوسطى . وقد ظن الخلفاء « أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال ، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب الذين عرفوا بالغيرة

---

(١) Curtin : The Mongols' History, p. 93.

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٣ .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٢٢٩ .

(٥) Hitti : History of the Arabs, p. 466.

والحسد ، أو على الفرس الذين تفاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهددا لكيان دولتهم وسلامتها » [١] .

وقد تفاقم أمر الأتراك فى بغداد فى عهد الخليفة المعتصم نفسه ، وأصبح هؤلاء يدوسون النساء والأطفال بخيولهم ، وانتهى الأمر بأن شكا أهل بغداد للمعتصم الذى لم يجد مخرجا من هذا المأزق إلا أن يبنى لهم مدينة سامرا سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) [٢] . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك ، بل انتقل مركز الخلافة أيضاً من بغداد إلى هذه المدينة . وقد استفحل أمر هؤلاء الأتراك حتى أصبح بأيديهم عزل وتعذيب وقتل من يعارضهم من الخلفاء ، وتولية آخرين ممن يوافقون أهواءهم . وعلى هذا النحو أصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة فى أيدى الأتراك . [٣]

وقد لاقى الخلفاء العباسيون فى هذه الفترة كل امتهان لكرامتهم على أيدى هؤلاء الأتراك ، فمثلا نراهم يحرضون المنتصر بن الخليفة المتوكل على قتل أبيه فقتله [٤] ، حتى إذا ماتولى المنتصر الخلافة وشعر باستبداد الأتراك أخذ يسبهم ويلقبهم « بقتلة الخلفاء » ، فكانت النتيجة أن أوعزوا إلى طبيبه بدس السم له فمات [٥] . ونلاحظ أن الأتراك استبدوا بالسلطة تماما بعد مقتل المتوكل ، واستضعفوا الخلفاء ، حتى كان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه . [٦] وليس أدل على مبلغ استفحال أمرهم وعظم نفوذهم من أنه لما ولى الخليفة المعتز الخلافة

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) انظر الجدول رقم (٢) ، ويبين خلفاء الدولة العباسية الذين عاشوا تحت سيطرة الأتراك فى سامرا .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٦) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢١٥.

جمع خواصه بعض المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة . وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟ قال : ما أراد الأتراك [١] . ولا شك أن هذا القول كان بعيدا جدا عن المبالغة ، إذ حدث بعد ذلك أن قام الأتراك بالثورة ضد المعتز ، وطلبوا إليه بعض المال ، فلما اعتذر بخلو خزائنه ، اتفقوا على خلعه وقتله ، فلما ذهبوا إلى بابه ، أرسلوا إليه ليحضر إليهم ، ولما اعتذر بسبب مرضه وتعاطيه الدواء ، هجموا عليه وأخذوا يكيلون له اللكمات ، ومزقوا ثيابه ، ووضعوه تحت أشعة الشمس المحرقة على قطعة أرض ساخنة كالجمر ، ولما لم يحتمل ما كانت عليه الأرض من سخونة ، كان يرفع قدماً ويضع أخرى . وفى هذه الأثناء ، كان البعض يلطمه وهو يتقى اللكمات بيده ، وأخيرا وضعوه فى بيت وسدوا بابه ، وتركوه فيه حتى مات ، بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه [٢] .

ولما أعيد مركز الخلافة العباسية من سامرا إلى بغداد فى عهد الخليفة المعتضد ، لم يتغير تيار الحوادث ، فقد استمرت القوة الحقيقية فى أيدى قواد الجيوش من الأتراك . [٣] وظل الحال على هذا النحو حتى دخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) . وإن تاريخ بنى العباس فى هذه الفترة ، أى منذ تركوا سامرا وعادوا إلى بغداد حتى بداية عصر بنى بويه [٤] ، لا يخرج عن كونه سلسلة مستمرة من المنازعات بين الخلفاء من جهة وبين الأتراك من جهة أخرى ، على أن نتيجة هذا النزاع كانت واحدة دائماً وهى الفوز للأتراك والذلة للخلفاء . وقد حاول الخليفة الراضى أن يقيل الخلافة من عثرتها ، فأوجد منصباً جديدا أطلق على صاحبه « أمير الأمراء » وهو

---

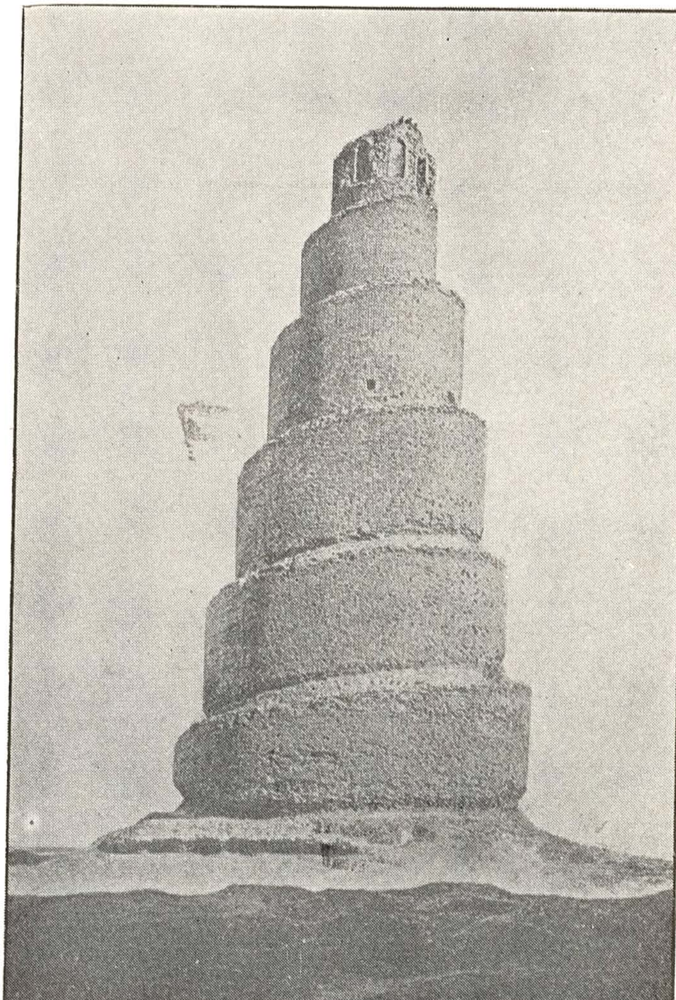
(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢١٥ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 468.

(٤) انظر الجدول رقم (٣) فى آخر الكتاب .

لوحة ١



مئذنة المسجد الجامع فى سامرا من القرن الثالث الهجرى (٩ م)

(عن كتاب Creswell : Early Muslim Architecture)

منصب يعلو منصب الوزير ، إذ كان من حق من يتولى هـذا المنصب أن يتصرف فى كل شئون الدولة ، فيرأس الجيش ويسيطر على مالية الدولة ، وله أن يولى ويعزل من الحكام من يشاء ، وفوق ذلك فقد كان اسمه يذكر فى خطبة الجمعة [١] . وقد تقلد هذا المنصب فى عهـــد الخليفة الراضى محمد ابن رائق ، أمير واسط ، الذى آلت إليه السلطة فى الدولة العباسية سنة ٣٢٤هـ (٩٣٥ م) فركزها فى شخصه .وأبطل أمر الوزارة ، كما أبطل الدواوين ، وغل عمل بيت المال ، وأمر بأن تحمل إليه الأموال . وعلى هذا الأساس أصبح الخليفة العباسى لايملك من الخلافة إلا اسمها . [٢]

ولم تستفد الدولة العباسية شيئاً من هذا النظام الجديد ، بل على العكس زادت حالتها سوءاً ، إذ تفاقم النزاع بين الأتراك على هذا المنصب مما أدى ازدياد حالة الفوضى فى البلاد ، كل ذلك والخليفة لا يملك إلا ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . ولم يجد الخلفاء فى النهاية من وسيلة إلا الالتجاء إلى بنى بويه ، فكانوا فى ذلك كمن استجار من الرمضاء بالنار .

وإذا كانت الخلافة العباسية قد ضاعت هيبتهـا وسطوتها على هذه الصورة التى رأيناها، فلم يكن هنـاك بد من أن يدب الانحلال والتفكك إلى الدولة الإسلامية حيث نشأت فى أنحائها المختلفة دويلات مستقلة انفصلت عن جسم الخلافة العباسية ، واستطاع بعض ذوى النفوذ الدينى والسياسى أن يؤسسوا لأنفسهم فى بقـاع الدولة المختلفة ، منتهزين فرصة ضعف الخلافة العباسية فى بغداد فى هذه الفترة . فظهرت دولة الأدارسة الشيعية فى مراكش (١٧٢ — ٣٦٤ هـ = ٧٨٨ — ٩٧٤م) ، واتخذ حكامها مدينة فاس حاضرة لهم . وتأسست أيضاً دولة الأغالبـــة السنية فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ — ٩٠٩م)، واتخذ حكامها مدينة القيروان حاضرة

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية، ص ٧٦ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٠ .

لهم[١] . وعلى أنقاض هاتين الدولتين تأسست الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية فيما بعد (٢٩٧ — ٣٥٨ هـ = ٩٠٩ — ٩٦٩ م) .

وإذا انتقلنا إلى مصر نجد الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) ، التى أسسها أحمد بن طولون ، ثم مد نفوذه إلى سوريا سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م). وتلت الدولة الطولونية دولة تركية الأصل أيضاً هى الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ — ٩٦٩ م) ، التى أسسها محمد بن طغج الإخشيد بتقليد من الخليفة الراضى[٢] ، واستطاع بعد ذلك أن يبسط نفوذه على سوريا وفلسطين ويخضع لسلطانه مكة والمدينة . واستمرت مصر فى أيدى الإخشيديين حتى آلت إلى الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

أما فى شرق العالم الإسلامى . فنجد الدولة الطاهرية فى خراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ = ٨٢٠ — ٨٧٢ م) التى أسسها طاهر بن الحسين ، واتخذ مدينة مرو حاضرة له ، وقد وسع خلفاؤه أملاكهم حتى حدود الهند ونقلوا حاضرتهم إلى نيسابور وظلوا بها حتى زالت دولتهم وحلت محلها الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ = ٨٦٧ — ٩٠٣ م) التى أسسها يعقوب بن الليث الصفار ، الفارسى الأصل . وقد امتدت أملاك هذه الدولة فشملت بلاد فارس وبعض بلاد الهند بل هددت بغداد نفسها فى عهد الخليفة المعتمد . وقد ورثت الدولة السامانية هذه الدولة حيث أسست لنفسها فى بلاد ما وراء النهر وفارس (٢٠٤ — ٣٩٥ هـ = ٨١٩ — ١١٠٤ م)[٣] ،

---

(١) انظر كتابى Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, pour L'Histoire de L'Islam, pp. 65-67.
Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, pp. 35 - 37.

(٢) انظر زامبور Zambour ص٩٣ ، لينبول Lane - Poole ص٦٨ـ٦٩.

(٣) انظر زامبور Zambour ص١٩٧ ـ ٢٠٢ ، لينبول Lane-Poole ص١٢٨ ـ ١٣٣ .

واستطاع نصر بن أحمد السامانى وخلفاؤه من بعده أن يمدوا نفوذهم على سجستان وكرمان وجرجان والرى وطبرستان، هذا بالإضافة إلى أملاكهم الرئيسية فى بلاد ما وراء النهر وخراسان ، واتخذ السامانيون مدينة بخارى حاضرة لهم ، بل ونافست إحدى مدنهم ، وهى سمرقند، مدينة بغداد فى علومها وفنونها .

وقد نشأت دويلات أخرى فى هذه الفترة فى أماكن مبعثرة من أراضى الدولة العباسية ، أضعفت وحدة العالم الإسلامى وجعلته أشبه شيء بالعصر الإقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى(١).

وهكذا نجد الخلافة العباسية عندما دخل البويهيون بغداد قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف وأصبحت كالمريض الذى ينتزع أنفاسه انتزاعا. كذلك نجد أن أملاكها قد ضاعت وتنازعتها الأيدى المتعددة ، وأصبح نفوذ الخليفة العباسى لا يتعدى بغداد نفسها ، ومع ذلك فقد انتزع الأتراك نفوذه فيها ، كما رأينا .

٭ ٭ ٭

ظهر البويهيون حوالى عام ٣٢٢ﻫ (٩٣٤م)، وهم فئة شيعية من أبناء بويه الذى نشأ فى إقليم مازندران(٢). وكان بويه قائد قبيلة تركية دخلت فى خدمة السامانيين تارة ، وفى خدمة الإسماعيلية جنوبى بحر قزوين تارة أخرى .

---

(١) من هذه: الدولة الزيدية فى طبرستان (٢٥٠ — ٤٢٤ﻫ = ٨٦٤ — ١٠٣٢م) ، والدولة الساجية فى أذربيجان (٢٦٦ — ٣١٨ ﻫ = ٨٧٩ — ٩٣٠ م) ، والدولة الدلفية بكردستان (٢١٠ — ٢٨٥ ﻫ = ٨٢٥ — ٨٩٨ م) ، والدولة الرسية فى اليمن (٢٨٠ — ٧٠٠ ﻫ = ٨٩٣ — ١٣٠٠م) ، والدولة اليعفُرية بصنعاء (٢٤٧ — ٣٨٧ﻫ = ٨٦١ — ٩٩٧ م) .

راجع كتابى Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, pp. 116, 122, 123, 179, 192, 199.
Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, pp. 91, 102, 125 - 127.

(٢) Fraser : Historical and Descriptive Account of Persia, p. 213.

وبعد أن تخلص هؤلاء من هذه التبعية ، ساروا إلى الجنوب واحتلوا إقليم فارس ، وساعدهم على ذلك ما سبق أن ذكرناه من ضعف الخلافة فى بغداد، واضمحلال هيبتها، وتقلص أملاكها فى الشرق والغرب .

وقد بلغ الاضطراب فى بغداد فى عهد الخليفة المتقى درجة كبيرة حتى اضطر هذا الخليفة أن يفر من بغداد ويطلب معونة الحمدانيين ، ثم أخذ يتنقل شريداً بين الموصل ونصيبين ، بل إنه طلب معونة الإخشيد الذى عرض عليه أن يترك بغداد ويقيم معه فى مصر ؛ على أن هذه الدعوة لم تلق قبولا لدى الخليفة[١] ، فلما عاد إلى بغداد سملت عيناه وخلع ، فتولى بعده الخليفة المستكفى الذى لم يكن أسعد حظاً من سلفه .

دخل أحمد بن بويه بغداد سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) ، فظن الخليفة المستكفى أن عهد الذلة والاستكانة قد زال ، وأن عهداً رغداً قد بات ينتظر خلفاء بنى العباس. لذلك نجد هذا الخليفة يستبشر بهذا العهد الجديد ، ويلقب أحمد ابن بويه « معز الدولة » ويلقب أخاه عليا « عماد الدولة »، وأخاهما الحسن « ركن الدولة » ، وبالغ فى إكرامهم ، فضرب ألقابهم على السكة .

على أن الخليفة المستكفى سرعان ما أدرك أن آماله لم تكن إلا سراباً خداعاً ، إذ أخذ معز الدولة يعمل على تقوية نفوذه شيئاً فشيئاً حتى انتهى به الأمر إلى الحجر على الخليفة ، ثم قدر له فى اليوم خمسة آلاف درهم لينفق منها على نفسه[٢] . وكان معز الدولة أول من قلب للخلافة ظهر المجن ، فعمل على إذلال الخليفة وإضعاف شأنه حتى تم له ما أراد . ومن أقرب الأمثلة على ذلك ما ذكره صاحب الفخرى فى هذا الشأن ، إذ قال[٣] :

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٣ . وقد ذكرنا من قبل أن الدرهم كان يساوى أربعة قروش مصرية تقريبا ، وعلى هذا الأساس فإن المبلغ الذى كان يتقاضاه الخليفة المستكفى فى اليوم كان مائتين من الجنيهات المصرية على وجه التقريب .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٥٢–٢٥٣ .

« إن معز الدولة « ركب يوماً إلى دار الخلافة وسلم على المستكفى »
« وقبل الأرض بين يديه . . . ثم تقدم إلى المستكفى رجلان من »
« الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه فظن المستكفى أنهما »
« يريدان تقبيل يده، فمد يده، فجذباه ونكساه من السرير ووضعا »
« عمامته فى عنقه وسحباه . . . ودخل الديلم إلى حرم الخليفة ، »
« وحُمل المستكفى إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، وخلع من »
« الخلافة ونهبت داره، وسملت عيناه ».

وإذا تتبعنا الفترة التى حكم فيها بنو بويه بغداد (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ = ٩٤٥ — ١٠٥٥ م) ، ألفيناها تنطوى على إذلال الخلفاء ، ويتجلى ذلك فى خلع بعضهم وتعذيب وتشريد البعض الآخر ، وانتهى الأمر بأن أصبح البويهيون كل شىء فى الدولة ، يصرفون شئونها على الوجه الذى يرتضونه . فما أصدق صاحب الفخرى حين قال عن هذه الجماعة إنها « استولت على الخلافة فعزلت الخلفاء وولتهم ، واستوزرت الوزراء وصرفتهم، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق ، وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق »[١] .

ونحن نعلم أن البويهيين كانوا شيعيين حكموا سنيين، ورغم أن الأمر كان بيدهم إلا أنهم لم يحاولوا إزالة الخلافة العباسية وإبدالها بخلافة علوية ، فلم يعلن معز الدولة بن بويه هذا المذهب خوفا من الثورات ، لا فى بغداد وحدها ولكن فى كل الولايات الإسلامية أيضاً[٢] . وقد ذكر ابن الأثير فى هذا الصدد أن معز الدولة قد عدل عن فكرة إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية بعد أن أشار عليه أحد رجاله بالعدول إذ قال له :

« إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من »

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٢٤٤ .

Muir : The Caliphate, p. 578. (٢)

« أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ؛ ومتى »
« أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت »
« وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه . (١) »

هكذا وصل الحال بخلفاء الدولة العباسية فى عصر بنى بويه ؛ وقد عجز الخلفاء عن استرداد مكانتهم وباتوا يتطلعون إلى صديق يخلصهم من هذا النير ، ولم يكن ذلك الصديق سوى طغرلبك السلجوقى كما سنرى .

وإذا نظرنا إلى أقاليم الدولة العباسية فى هذه الفترة ، رأينا أن الفاطميين منذ فتحوا مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، أخذوا يعملون على نشر نفوذهم السياسى والدينى لا فى بلاد الشام والحجاز فقط ، بل فى كل أراضى الدولة العباسية أيضا ، وقد نجح الفاطميون فى ذلك عندما دخل عميلهم البساسيرى بغداد كما سنرى . أما عن الأقاليم الشرقية من أراضى الدولة العباسية ، فأهم ما يلاحظ فى هذه الفترة أن الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ — ١١٨٦م) أخذت تتوسع تدريجياً على حساب الدولة السامانية(٢) . وقد أسس هذه الدولة ألبتكين التركى Alptigin (٣) ، أحد الأرقاء فى الدولة السامانية ، وقد شغل منصب رئيس حامية خراسان ، ثم عين حاكماً عليها ، ولكنه انتقل بعد ذلك إلى الأقاليم الشرقية من الدولة السامانية . وفى سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) تمكن من الاستيلاء على مدينة غزنة من حكامها الأصليين وكون فيها نواة دولة مستقلة ، تحولت فيما بعد إلى الدولة الغزنوية فى أفغانستان وإقليم البنجاب . وقد استطاع سبكتكين(٤) زوج ابنة ألبتكين ، أن يوسع أملاكه حتى شملت بشاور فى الهند كما شملت خراسان فى فارس . ويعتبر محمود بن سبكتكين (٣٨٨ — ٤٢١ هـ = ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) ، أهم أعضاء هذه الدولة ، فقد وسع نفوذه فى بلاد الهند حتى شملت إقليم البنجاب بما فى

---

(١) ابن الأثير . الكامل ، ج ٨ ص ١٧٧ .

(٢) انظر كتابى Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, p. 282.

Lane-poole: The Mohammadan Dynasties, pp. 285 - 290.

(٣) يكتب فى الفارسية ألبتكين (٤) يكتب فى الفارسية سبكتكين .

ذلك لاهور ومولتان وغيرها من بلاد الهند . أما فى الغرب فقد وسع أملاكه حتى شملت العراق العجمى بما فى ذلك الرى وأصفهان . وقد استولى على هذه البلاد من أيدى البويهيين الشيعيين ، ولما كان هو سنيا فقد سماه الخليفة القادر « يمين الدولة » ونقش اسمه على السكة . وقد شملت هذه الدولة مساحة كبيرة من أراضى المسلمين ، فإلى جانب العراق العجمى وشمال الهند ، ضمت خراسان وطخارستان بما فى ذلك مدينة بلخ مركزها الرئيسى ، ثم جزءا من بلاد ما وراء النهر فى الشمال ، وإقليم سجستان فى الجنوب ، وكانت مدينة غزنة ، حاضرة هذه الدولة الواسعة[١] . وقد زين محمود الغزنوى هذه المدينة بالمبانى الجميلة ، كما أنها أصبحت كعبة الشعراء والأدباء .

ولا يختلف حكام الدولة الغزنوية عن السامانيين والصفاريين من قبلهم من حيث الاعتماد على القوة وحدها ، بحيث أنه لما زالت هذه القوة بموت محمود الغزنوى ، بدأت هذه الدولة فى الانحلال ، فنشأت إمارات إسلامية مستقلة فى بلاد الهند ، وضاعت أملاك الدولة الغزنوية بين خانات التركستان وسلاجقة فارس ، كما استطاع الغوريون أصحاب أفغانستان أن يصوبوا لها الضربة القاضية ، إذ استطاعوا فى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) أن يقضوا على آخر الغزنويين فى لاهور .[٢]

وقد استولى السلاجقة على أهم أقاليم هذه الدولة فى الغرب إذ أنهم اضطروا إلى الهجرة إلى بخارى ، واستقروا فى خراسان وازداد عددهم تدريجياً فى عهد محمود الغزنوى نفسه ، ثم قوى نفوذهم بعد موته ، واستطاع قائدهم طغرلبك فى سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) أن يثبت أقدامه فى خراسان وأن يتخذ من نيسابور حاضرة له[٣] . وقد ساعد على وقوع هذه الأملاك

(١) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. ii p. 68.

(٢) Hitti : History of the Arabs p. 465.

(٣) Fraser : Historical & Descriptive Account of Persia, pp. 214 - 215.

فى أيدى السلاجقة ، اهتمام خلفاء محمود الغزنوى بأملاكهم فى بلاد الهند وإهمالهم أملاكهم فى بلاد فارس[١] .

ونلاحظ أن الخلفاء العباسيين فى عهد بنى بويه كانوا قد فقدوا كل سيطرة حقيقية على أملاك الدولة العباسية فى الشرق والغرب ، بل أصبح الخليفة فى بغداد نفسها حبيساً فى أيديهم ، ولم يعد يتمتع بشىء من النفوذ فى أقاليم الدولة العباسية ، ولا فى بغداد نفسها .

وخلاصة القول ، فإن الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه قد باتت تستند إلى قوة أسرة أجنبية ، ولم يعد للخليفة من الأمر شىء سوى سلطته الدينية ممثلة فى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية ، غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور[٢] . وقد ظل حال الخلافة على هذا النحو حتى دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) .

(ب) الخلافة العباسية فى العصر السلجوقى

تفرع السلاجقة عن قبائل « الغز » كما تقدم ، وقد اندفعوا حوالى سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦ م) من سهول تركستان ، وسكنوا أول أمرهم فى بلاد ماوراء النهر[٣] ، حيث دخلوا فى حظيرة الإسلام على مبادىء المذهب السنى ، ودخل سلجوق وأبناؤه فى خدمة السامانيين . وقد استطاع طغرلبك[٤]

---

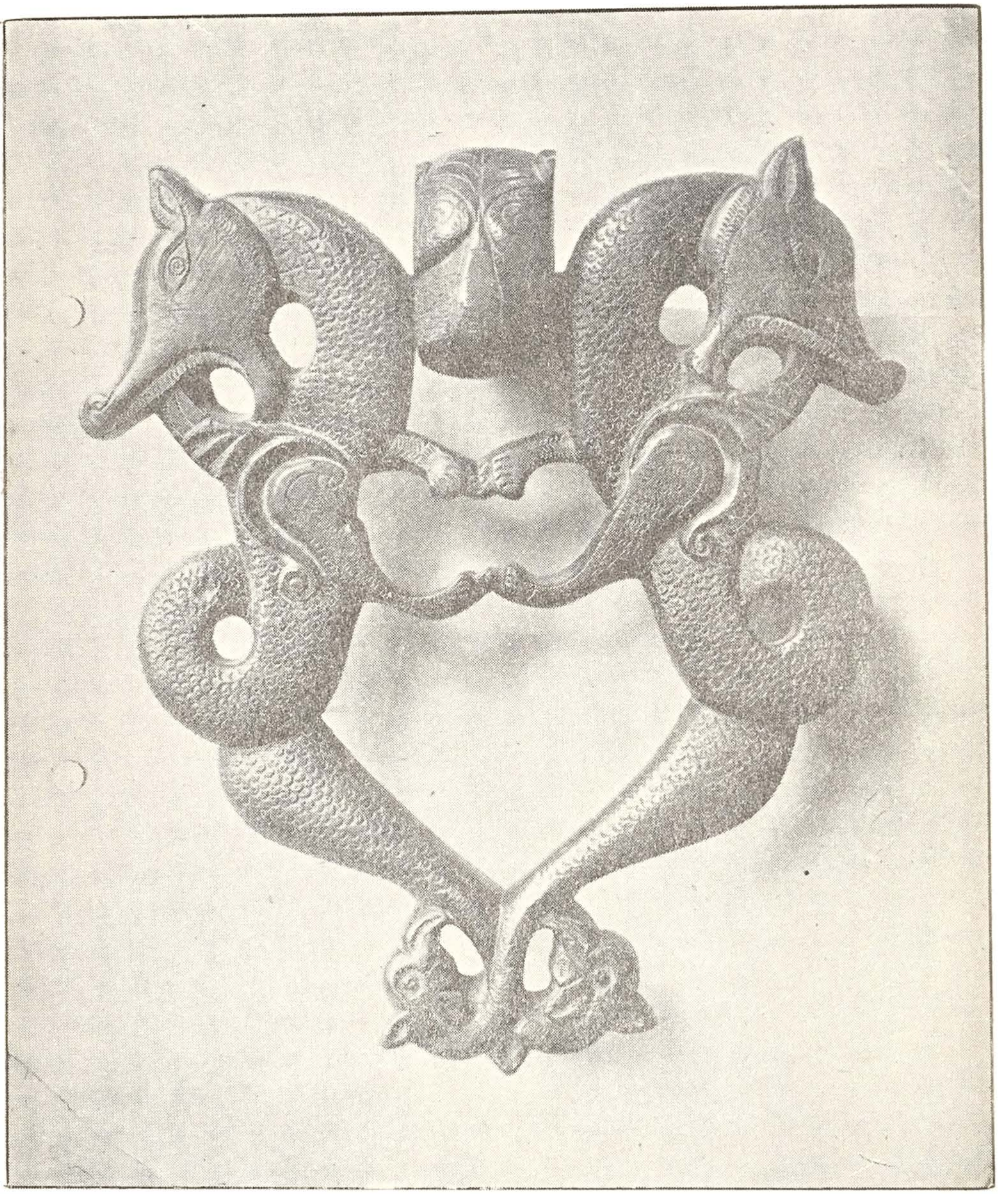
(١) Sykes : A History of Persia, p. 51.

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٩٠ .

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٦٧ .

(٤) يكتب هذا الاسم أحيانا فى مقطعين منفصلين أى « طغرل بك » . انظر كتاب محمد سعيد : تاريخ گلشن معارف ، ج ١ ص ٣٥٧ وغيرها من الصفحات . ويكتب أحيانا أخرى « طغرول » انظر نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٦١ . وقد ذكر لى الأستاذ المستشرق ڤلاديمير مينورسكى V. Minorsky ، أنه من الجائز أن تدون الأسماء التركية دون كتابة ما فيها من حروف متحركة وضرب لى مثلا بأسماء القبائل الآتية ، التى يجوز كتابتها بأحد الوضعين الآتيين : =

لوحة ٢



« سماعة » باب من البرونز من صناعة بلاد الجزيرة أو العراق فى القرن السادس الهجرى (١٢ م)

(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

حفيد سلجوق أن يغامر بجيوشه حتى وصل إلى خراسان . وفى سنة ٤٢٩ ﻫ (١٠٣٧ م) ، وضع السلاجقة أيديهم على مرو ونيسابور من ممتلكات الغزنويين ، ثم أضافوا إليهما بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والرى وأصفهان ، وانتهى الأمر بأن ضعف نفوذ البويهيين أمامهم . وفى هذه الأثناء كان الخليفة العباسى القائم يئن تحت حكم البساسيرى الذى كان مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه . وقد صور ابن العميد نفوذ البساسيرى فى العراق فى عبارته التالية :

« وكان قد عظم قدره بالعراق واستفحل . . . . فطار اسمه ، »
« وعظمت هيبته وخافته أمراء العرب والعجم ، وخطب له على »
« منابر العراق ولم يبق للملك الرحيم بن بويه إلا مجرد الاسم ، ثم »
« بلغ الخليفة القائم بأمر الله أن البساسيرى قصد دار الخلافة »
« للقبض عليه . »(١)

وقد استطاع البساسيرى فعلا أن يقبض على الخليفة القائم وأن يسجنه فى قلعة الحديثه (٢) ولم يكن هناك من سبيل أمام الخليفة ، للنجاة من هذا الطاغية المتعصب للمذهب الشيعى ، إلا أن يستنجد بطغرلبك السنى المذهب ، وكان إذ ذاك بمدينة الرى (٣) . فلما وصل طغرلبك إلى أبواب بغداد ، استأذن الخليفة فى دخول المدينة فأذن له . وعلى هذا الأساس دخل بغداد دخول الظافر سنة ٤٤٧ ﻫ (١٠٥٥ م) (٤) ، واستقبل استقبالا عظيما شهده

= سَلَغُر أو سالغور
بايُندر أو بايوندور
أيغُر أو أويغور

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٧١ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٥٦ .
(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٧١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٢٥٤ .

كبار رجال الدولة وأعيانها ، كما كرمه الخليفة المغلوب على أمره أعظم تكريم إذ أمر بأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة كما لقبه « ركن الدولة طغرلبك إمام أمير المؤمنين . »(١)

وكان البساسيرى قد هاجر من بغداد إلى الرحبة عندما علم بقدوم طغرلبك. ولم يكن من المعقول أن يقف عند هذا الحد ، فكاتب الخليفة المستنصر بالله الفاطمى صاحب مصر ، وخطب له بالرحبة فأمده بالأموال.(٢) واستطاع البساسيرى أن يدخل بغداد ثانية على رأس قوة من السوريين سنة ٤٥٠ ﻫ (١٠٥٨ م) ، منتهزا فرصة غياب طغرلبك عنها ، إذ كان فى ذلك الوقت مشغولا فى إخضاع ثورة نشبت فى شمال العراق . وقد خطب البساسيرى للخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد ، بل أدخل عبارة الفاطميين المألوفة فى الأذان وهى « حى على خير العمل » (٣) ، كما أرسل الهدايا إلى مصر ، ومن بينها عمامة الخليفة القائم وشباك جميل من شبابيك قصره ، كعلامة على ما أحرزه من نصر . ولكن طغرلبك مالبث أن عاد إلى بغداد وقبض على البساسيرى وقتله سنة ٤٥١ ﻫ (١٠٥٩ م) وأمعن فى التنكيل به فأمر بأن يحمل رأسه إلى دار الخلافة (٤)، واستقر الأمر بعد ذلك للسلاجقة فى بغداد .

وكانت الفترة الواقعة بين سنتى ٤٤٧ — ٤٨٥ ﻫ (١٠٥٥ — ١٠٩٢ م) ، أى منذ دخول طغرلبك بغداد حتى وفاة السلطان ملكشاه ، أزهى عصور السلاجقة ، إذ كانت السلطة الزمنية مركزة فى يد واحدة ، كما استطاع

---

(١) Defremery : Histoire des Seldjoukides ; Extraits des Tarikhi Guzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi, p. 427. (Journal Asiatique, avril-Mai, 1848.)

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٧١ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٢٦٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ٩ ص ٢٧١ .

السلاجقة فى هذه الفترة أن يوحدوا عالما إسلامياً لم يكن بالأمس غير اجزاء متنافرة متعادية ، بل إنهم أخذوا يوسعون أملاك المسلمين تدريجيا ، فنرى طغرلبك يمد نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينيه ، ولما توفى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، استطاع خلفه ألب أرسلان [١] أن يوسع نفوذه على حساب الدولة الرومانية الشرقية ، حتى امتدت أملاك الدولة السلجوقية إلى بحر مرمرة بعد أن أحل الهزيمة بالإمبراطور البيزنطى رومانوس Romanus وأسره فى موقعة ملازكرد سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) [٢] ، وفوق ذلك استولى السلاجقة على حلب سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، واستطاع ألب أرسلان بهذا النصر أن يحول دون توسع الفاطميين فى هذه البلاد ، بل استطاع ان يستولى على مكة والمدينة من أيديهم.

وقد استطاع السلطان ملكشاه ٤٦٥—٤٨٥ هـ (١٠٧٢—١٠٩٢م) أن يخضع سوريا وجورجيا فى الغرب ، وبخارى وسمرقند وخوارزم فى الشرق ، كما استطاع بعد ذلك أن يعبر نهر سيحون ويخضع بلاد تركستان ، وبلغ من عظم نفوذه فى هذه البلاد أن صُك اسمه على السكة وأقيمت له الخطبة فى مدينة كاشغر . ومن ثم بلغت دولة السلاجقة فى عصر ملكشاه درجة عظيمة من الاتساع ، فامتدت من حدود الصين شرقا إلى جورجيا والأراضى المجاورة لمدينة القسطنطينية غربا ، كما شملت بيت المقدس وبلاد العرب [٣].

فما أصدق ابن خلكان حينما وصف ملكشاه بقوله [٤] :

---

(١) أرسلان لفظ تركى معناه أسد .

(٢) Defremery : Histoire des Seldjoukides ; Extraits des Tarikhi Guzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi, p. 427. (J. Asiat., Avril-Mai, 1848).

(٣) Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. vi, pp. 20—21.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦٢ .

« فتح البلاد واتسعت عليه المملكة وملك ما لم يملكه »
« أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين »

ومن الحق أن نعترف بأن السلاجقة إذا كان لهم من فضل على العالم الإسلامى فهو أنهم أزالوا الدويلات الصغيرة القائمة فى ذلك الوقت، وأوجدوا بدلا منها عالما موحدا يأتمر بإمرة حاكم واحد دفعوا به البيزنطيين إلى الوراء، كما أوجدوا جماعة من المحاربين المسلمين يرجع إليهم الفضل فى فشل الصليبيين (١). وكان ملكشاه دائم التنقل فى مملكته يتفقد أمورها ويرعى مصالح سكانها، وبذلك استطاع أن يحافظ على ما اكتسبه السلاجقة من مجد، وأثار مخاوف الأوربيين، كما أقض مضاجع البيزنطيين.

ولم يقل اهتمام ملكشاه بأمور دولته الداخلية عن اهتمامه بالتوسع فى الفتح، إذ تعددت مشروعاته فى النواحى العمرانية، فأسس المساجد فى بغداد، كما بنى المدرسة النظامية فيها بمساعدة وزيره نظام الملك (٢). واهتم ملكشاه ووزيره بحفر القنوات وإقامة الأسوار حول المدن، وتشييد القناطر، ولم تكن عنايته بتشجيع العلم والعلماء بأقل مما سلف (٣).

وكان اهتمام السلطان ملكشاه خاصة وسلاطين السلاجقة عامة بالفنون كبيرا، وفى ذلك يقول الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن : (٤)

« وقد كان الأمراء السلاجقة يشملون الفنون برعايتهم فى »
« آسيا الصغرى والعراق وإيران ؛ ولكن العنصر التركى الذى »
« ينتمون إليه لم يظهر تأثيره فى العمائر والتحف الفنية فى عصرهم؛ »
« لأنهم كانوا يستخدمون أبناء البلاد أنفسهم فى الأقاليم »

---

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 165.

(٢) Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 326.

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 276.

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، ص ١٨ .

« الإسلامية المختلفة ، ويشجعوهم بما يكلفونهم به من عمل أو »
« يشـــترونه من تحف فنية . ومع ذلك كله فقد نشأ تحت »
« رعايتهم طراز قائم بذاته ، امتاز بضخامة العمائر واتساعها »
« ومظهرها القوى ، كما امتاز أيضاً باستخدام رسوم الكائنات »
« الحية محورة عن الطبيعة ، على النحو الذى امتازت به الفنون »
« الإسلامية عامة . ومن مميزات الطراز السلجوقى ، عدا ذلك ، »
« كثرة استخدام الزخارف المجسمة ولا سيما فى وجهات العمائر . »

ولا شك أن جهود السلاجقة فى العناية بالنواحى المختلفة للفنون الإسلامية قد أثمرت وظهرت نتائجها واضحة ، فنرى تجديداً خطير الشأن فى الكتابة ، كما ظهرت فى هذا العصر أولى مدارس التصوير فى الإسلام ، وازدهرت صناعة التحف المعدنية ، والخزف ، والزجاج ، وكذا صناعة السجاد التى كانت قبل ذلك فى يد القبائل الرحل فى آسيا الوسطى (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزا لهم حتى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) أى قبيل وفاة ملكشاه (٢) . إذ اختلفت حواضر سلاطين السلاجقه من سلطان لآخر ؛ فنرى أن طغرلبك الأول قد اتخذ من مدينة نيسابور حاضرة له ، وحكم ألب أرسلان فى مدينة مرو كبرى مدن خراسان ، أما ملكشاه وأبناؤه محمود وبركياروق ومحمد فقد حكموا فى أصفهان ، على أن سنجر بن ملكشاه قد آثر الإقامة فى مدينة مرو (٣) .

غير أن هذه الأمبراطورية الإسلامية القوية ، ما لبثت أن انهارت بعد وفاة السلطان ملكشاه لأسباب وعوامل عدة ، أهمها انقسام السلاجقة

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، ص ١٨–٢٦ . وانظر أيضا كتاب فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن ، ص ٨٦ – ١٠٠ ، ١٧٠ – ١٧٣ ، ٢٧١ – ٢٨٥ ، ٣٧٤ – ٣٧٦ ، ٤٧٨ – ٤٨٢ .

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 476.

(٣) Sanaullah : The Decline of the Saljuqid Empire, p. 39.

على أنفسهم ، بل ويمكن القول إن الفترة التى تلت عصر ملكشاه حتى نهاية الحكم السلجوقى فى بغداد سنة ٥٩٠ ﻫ (١١٩٣ م) ، كانت فترة أهم حوادثها النزاع الداخلى الذى قام بين أبناء ملكشاه وأحفاده . فقد انصرف هؤلاء عن أمور الدولة ومصالحها ، وأخذ كل يسعى إلى مجد شخصى ، وكان من أثر ذلك أن انقسمت دولتهم إلى دويلات صغيرة عرفت بدول الأتابكة ، كما استفحل نفوذ طائفة الإسماعيلية التى أخذت تعمل على هدم كل القوى الموجودة فى ذلك الوقت ، لترتفع على أنقاض هذه القوى جميعها . وعلى هذا الأساس نرى هذه الطائفة تحارب السلاجقة ، وتجاهد ضد الخلافة العباسية ، فانضمت تارة إلى سلاطين السلاجقة فى نزاعهم مع الخلافة ، كما انضمت تارة أخرى إلى الخلفاء العباسيين فى نزاعهم مع كل من السلاجقة والخوارزميين ، ولذلك لم يسلم السلاجقة من خناجرهم ، كما لم يسلم منها الخلفاء العباسيون والخوارزميون .

• • •

رأينا أن الخليفة العباسى القائم استدعى طغرلبك السلجوقى لينقذه من تحكم البساسيرى خاصة والبويهيين عامة ، وقد اعتقد العباسيون خطأ أنهم باستدعائهم السلاجقة ، قد استعادوا نفوذهم وسطوتهم ، وأنهم بذلك قد استبدلوا بما هم عليه من ضعف وذلة قوة وعزة . وقد انهار كل ما كان يعلقه الخلفاء العباسيون على استدعاء السلاجقة من آمال كبار ، فإن حالة العباسيين فى أيام السلاجقة لم تختلف اختلافا كبيراً عما كانت عليه فى أيام البويهيين[1]. فإذا كان البويهيون قد استبدوا بالسلطة وغلوا أيدى الخلفاء ، فإن هذه السلطة قد انتقلت برمتها إلى أيدى السلاجقة ففعلوا بالخلفاء مافعله الأتراك والبويهيون بهم من قبل . ومما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى أنهم كانوا يعيشون من إقطاعات مقررة يأخذون دخلها[2] ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٩٢ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٩١ — ٩٢ .

ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه على السكة ، وهذا بعينه ما كان يحدث فى أيام البويهيين . ونلاحظ أن الخلفاء العباسيين كانوا قد انصرفوا إلى الترف وحياة الدعة حتى قبل دخول السلاجقة بغداد فبنوا القصور الفخمة وبالغوا فى الاحتجاب عن الرعية[١] ، وليس هناك من شك فى أن ذلك كان من أقوى الأدلة على ضعفهم . ويذكر الرحالة اليهودى تودلا Tudela أنه حينما زار بغداد حوالى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) كان الخليفة العباسى لا يخرج من قصره إلا مرة واحدة فى العام ، أى عندما يؤم الناس للصلاة فى عيد الفطر[٢] .

ويرجع السبب فى ضعف الخلفاء العباسيين فى هذا العصر إلى السلاجقة أنفسهم، فمنذ دخلوا بغداد لم يحاولوا أن يأخذوا بيد الخلفاء الذين كانوا مهيضى الجانب فى عهد بنى بويه ، هذا على الرغم من أن السلاجقة كانوا سنيين وكان بنو بويه شيعيين . فقد وضع السلاجقة نصب أعينهم أن يسيروا فى سياستهم مع الخلفاء على نمط سياسة البويهيين من قبلهم فغلوا أيديهم تماما ، حتى إذا ما حاول أحد الخلفاء استعادة نفوذ آبائه وأجداده سلطوا عليه جام غضبهم فعزلوه أو طردوه من بغداد وسلطوا عليه من يقتله . فإذا كان السلاجقة قد حطموا تلك الأغلال التى وضعها البويهيون فى أيدى الخلفاء ، فقد صنعوا من الأغلال القديمة أغلالا جديدة قيدوا بها الخلافة من جديد[٣] . ومن أقرب الأمثلة على ضعف الخلفاء العباسيين ، ما نجده ممثلا فى شخص الخليفة المقتدى ، فإنه عزل وزيره عميد الدولة لا لسبب إلا لتحقيق رغبة للسلاجقة[٤] ، كما أنه عزل وزيره أبا شجاع تحقيقاً لرغبة ملكشاه[٥] ،

(١) Le Strange : Baghdad During the Abbassid Caliphate, p. 327.

(٢) Ibid., p. 332.

وربما حدثت زيارة هذا الرحالة اليهودى لمدينة بغداد فى عهد الخليفة المقتفى أو المستنجد.

(٣) انظر كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للمؤلف ، ص ٩٥ .

(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٥٩ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٦١ .

بل إن ملكشاه صمم على طرد هذا الخليفة من بغداد سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) لأنه رأى فيه ميلا إلى التدخل فى الحكم [١]، فأرسل إليه يقول: «لابد أن تترك لى بغداد وتذهب إلى أى بلد شئت. فانزعج الخليفة وقال: أمهلنى ولو شهراً. قال: ولا ساعة واحدة. فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام؛ فاتفق مرض السلطان وموته، وعد ذلك كرامة للخليفة» [٢].

وليس أدل على ضعف الخليفة العباسى من أنه لما توفى السلطان ملكشاه، نشأ صراع طويل بين أبنائه ولم يستطع الخلفاء أن يتدخلوا فى هذا الصراع، بل كان موقف الخليفة موقف الرجل الضعيف الذى يشهد صراعا بين قوتين وينتظر نتيجة المعركة، حتى إذا ما قاربت على الانتهاء ولاحت نتيجتها، انضم إلى الجانب الغالب ضد المغلوب. ومن أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث فى أثناء الصراع بين بركياروق وبين محمد ابنى ملكشاه، فإنه لما دخل الأول مدينة بغداد فى أواخر سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م)، لم يتردد الخليفة المقتدى فى أن يأمر بأن تقام له الخطبة على المنابر [٣]، ولما لم يرض محمد بن ملكشاه عن سلطنة أخيه بركياروق، نشأ صراع طويل بين الطرفين كان الخليفة المستظهر فى أثنائه يأمر بأن تقام الخطبة لمن يدخل منهما بغداد ظافرا، بعد أن يقطع الخطبة للسلجوقى المنهزم، ولما انتصر بركياروق فى النهاية، أرسل إليه الخليفة من يستقبله على باب بغداد مرحبا [٤].

وليس معنى ذلك أن الخلفاء العباسيين قد ركنوا إلى الذلة والمسكنة

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص ٩٥.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١٨١ — ١٨٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٩٤.

(٤) خُطب للسلطان محمد سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م)، ثم لبركياروق سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م)، وأعيدت الخطبة فى نفس السنة لمحمد، وعاد الخليفة فخطب لبركياروق سنة ٤٩٤ (١١٠٠ م). انظر ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧.

لوحة ٣



شمعدان من البرونز المطعم بالذهب والفضة من صناعة إيران أو العراق فى القرن السابع الهجرى (١٣ م)

(عن كتاب الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى للدكتور زكى محمد حسن)

بل الواقع أنهم أخذوا منذ أيام الخليفة المسترشد يثورون لكرامتهم التى سلبت ، فانتهز الخلفاء منذ ذلك الحين فرصة ما آل إليه السلاجقة من ضعف وما آلت إليه دولتهم من انحلال وأخذوا يعملون لأنفسهم غير مبالين بما يترتب على ذلك من نتائج . فقد حدث أن أراد الخليفة المسترشد بعد أن ولى الخلافة أن يستعيد مجد أسلافه بعد ما رآه من تعسف السلاجقة . وقد أثر عنه أنه قال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق ، فبغوا علينا ، فطال»
«عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون [١] . »

لذلك لا نعجب إذا وجدنا الخليفة المسترشد يعمل منذ البداية وفق الخطة التى رسمها لنفسه إذ تجرأ على مقاومة نفوذ السلطان محمود السلجوقى ، فنشب الصراع بين الطرفين سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وكان من نتيجته أن اعتذر السلطان السلجوقى فى النهاية [٢] . ولما مات السلطان محمود سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م) ، نجد هذا الخليفة يعمل على تقوية نفسه بجمع الجيوش لاسترداد ما كان للعباسيين من نفوذ ، واتخذ من الخلاف الذى قام بين أفراد البيت السلجوقى فرصة للاستبداد بأمور العراق [٣] . وأكثر من ذلك ، نجده يعمل على إيقاع العداوة والبغضاء بين كبار رجال السلاجقة ليكون له الغنم فى النهاية [٤] . ووصلت جرأته إلى حد أنه قطع الخطبة للسلطان مسعود سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م) ، رغبة منه فى استخلاص الحكم لنفسه [٥] . ولم يكن

(١) النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، ص ٣١ . ومما هو جدير بالذكر أن هذه العبارة قد ذكرت بالعربية فى هذا الكتاب نفسه ، نشر إدوارد براون E. Browne ص ٣٨ ، كما يأتى :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق ، فبرزوا علينا ، فطال »
« عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٠ — ٢٧٢ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٨٨ — ٩٠ .

بد إذن من أن يقوم الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود ، فلما التقى الجيشان العباسى والسلجوقى غدر بالخليفة أكثر عسكره فتمكن السلطان من أسره ، كما تمكن من أسر عدد كبير من خواصه ، وسجن هؤلاء جميعاً فى قلعة على مقربة من مدينة همذان . ولما بلغ أهل بغداد ذلك ، حثوا التراب على رءوسهم فى الأسواق وبكوا وضجوا وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعت الصلاة والخطبة(١) .

ولما وجد السلطان سنجر ما أحدثه أسر الخليفة من أثر سيء فى نفوس الأهالى ، خشى العاقبة وأرسل إلى ابن أخيه مسعود يقول :

« ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين (يقصد مسعوداً) »
« على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين »
« يديه ، ويسأله العفو والصفح ، ويتنصل غاية التنصل ، فقد ظهر »
« عندنا من الآيات السماوية والأرضية مالا طاقة لنا بسماع مثلها »
« فضلا عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل ، ودام »
« ذلك عشرين يوماً . . . . ولقد خفت على نفسى من جانب الله »
« وظهور آياته وامتناع الناس عن الصلاة فى الجوامع ومنع الخطباء »
« مالا طاقة لى بحمله . فالله الله تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين »
إلى مقر عزه » . (٢)

وقد اتفق السلطان مسعود مع الخليفة المسترشد على الصلح ، على أن يدفع الخليفة تعويضاً مالياً للسلطان وأن يتعهد بعدم جمع الجيوش بل ومغادرة قصره (٣) . ويظهر أن السلطان مسعودا فعل ذلك على غير رغبة منه ، وإنما كان ذلك نزولا على رغبة عمه سنجر (٤) . ومما يدل على ذلك

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٧ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨٧ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٢ .
(٤) مما هو جدير بالذكر أن السلطان سنجر كان قد فرض نفوذه على سلاطين السلاجقة فى العراق منذ أيام السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وكان هؤلاء يدفعون الجزية للسلطان سنجر ومنهم مسعود نفسه. Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs, p. 45 & 47.

أنه أوعز إلى جماعة من الإسماعيلية بقتله [١] ، فدخلوا عليه فى خيمته وطعنوه بخناجرهم حتى قتلوه وقطعوا أنفه وأذنيه ، وكان ذلك سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) [٢] .

ولى الخليفة الراشد الخلافة بعد أبيه ، ويظهر أنه تعهد للسلطان مسعود فى سبيل وصوله إلى كرسى الخلافة ، أن يكون طوع بنانه ، وكتب تعهدا على نفسه شهد فيه بعض قضاة الدولة أنه إذا حاول محاربة السلطان مسعود أو جرد السيف على أصحابه حق عليه الخلع من الخلافة [٣] ، كما تعهد بأن يدفع للسلطان السلجوقى مبلغ أربعمائة ألف دينار ثمنا لتوليته الخلافة [٤] . فلما تولى الخليفة الراشد ، عمل على إعادة نفوذ الخلفاء العباسيين الأول ، كما حرص على أن ينتقم من السلطان مسعود قاتل أبيه ، لذلك نجده يعتذر عن عدم دفع هذه الأموال لرسول السلطان بحجة أنه لم يجد شيئاً فى خزانة المسترشد ، ولما تجرأ رسول السلطان وأراد تفتيش دار الخلافة ، حال الراشد بينه وبين ما يريد [٥] ثم توجه الخليفة الراشد بعد ذلك للعمل على خلع السلطان مسعود وتولية ابن أخيه داود مكانه ، فألب عليه حكام دولته وعلى رأسهم عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، وقام الجميع ينادون بمحاربة مسعود وخلعه وتولية داود مكانه ، غير أنه لسوء حظ الخليفة ، استطاع مسعود أن يهزم هذا الحلف ، فلم يجد داود بدا من الهرب من بغداد ، كما وجد الراشد نفسه مضطراً إلى الفرار إلى مدينة الموصل مع عماد الدين

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٧ .

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

انظر أيضا ، النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٦ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦ . ويساوى هذا المبلغ ١٩٢,٠٠٠ من الجنيهات المصرية تقريبا .

(٥) المرجع نفسه والصفحة .

زنكى ، كل ذلك فى سنة ٥٣٠ ھ (١١٣٥) [١] . وقد استطاع السلطان مسعود بعد دخوله بغداد فى هذه السنة نفسها أن يجمع العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان ويحملهم على أن يشهدوا بظلم الراشد ونهبه الأموال وسفك الدماء بل وشرب الخمر ، فأفتوا بأنه يحق للسلطان خلعه واستبداله بغيره . وهكذا خلع مسعود الخليفة الراشد وولى مكانه عمه المقتفى لأمر الله سنة ٥٣٠ ھ (١١٣٥ م) [٢] . أما الخليفة المخلوع ، فقد أخذ يتنقل شريداً فى البلاد الإسلامية ، ويعمل فى نفس الوقت على استعادة نفوذه . لذلك سلط عليه السلطان مسعود جماعة من الإسماعيلية فقتلوه بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢ ھ (١١٣٧ م) [٣] .

ولم يكن الخليفة الجديد أحسن حالا من سابقيه ، فقد اشترط عليه السلطان مسعود عندما ولاه الخلافة أن يجرده من خيله كما أخذ كل ممتلكاته ، وكان غرضه من ذلك ألا يمكنه من مغادرة بغداد وبذلك يظل أسيرا فى يده . وهكذا نرى السلطان السلجوقى « يأخذ جميع ما فى دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور وسرادق ولم يترك فى اصطبل الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الخيل » [٤] . كما نرى هذا السلطان يضع يده على كل أموال الدولة ويصبح المتصرف فى دار الضرب . ومما يدل على أن الخلافة العباسية قد حاق بها الضعف من كل جانب أن السلطان مسعودا أرسل وزيره للخليفة المقتفى سنة ٥٣١ ھ (١١٣٦ م) يطلب منه مائة ألف دينار فقال له المقتفى [٥] :

« ما رأينا أعجب من أمرك . أنت تعلم أن المسترشد سار »

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦ — ١٩ ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٩٢ — ٩٦ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .
(٣) الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٠ .
(٥) المرجع السابق والصفحة .

« إليك بأمواله لجرى ما جرى ، وأن الراشد ولى ففعل ما فعل »
« ورحل وأخذ ماتبقى،ولم يبق إلا الأثاث فأخذته كله ، وتصرفت »
« فى دار الضرب ، وأخذت الذكاة . فمن أى وجه نقيم لك هذا »
« المال ؟ وما تبقى إلا أن نخرج من الدار ونسلمها ، فإنى عاهدت »
« الله ألا آخذ من المسلمين حبة ظلماً . »

وهكذا لم يكن الخليفة المقتفى أسعد حالا ممن سبقه من الخلفاء ، وربما كان ذلك راجعاً إلى قوة شكيمة السلطان مسعود . إذ لما توفى هذا السلطان فى سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢م) ، لم يعد هناك من سلاطين السلاجقة فى العراق من يستطيع أن يشغل الفراغ الذى خلفه ؛ لذلك تعتبر وفاته بداية لانحلال البيت السلجوقى فى العراق ، وبداية لانتهاء سعادته[١] . ولا غرو فقد أخضع السلطان مسعود الخلافة العباسية لسلطته وردها لإرادته فى عهد المسترشد والراشد ، إلى ان مات فى عهد المقتفى . ولذلك لا نعجب إذا قيل إنه منذ أيام المقتفى (بعد وفاة مسعود طبعاً) ، عادت بغداد والعراق إلى أيدى الخلفاء ولم يبق لها منازع ، بعكس الحال قبل ذلك فقد كان الحكم للمتغلبين ، وليس للخليفة معهم إلا اسم الخلافة[٢] ومن أقرب الأمثلة على صحة هذا القول أن الخليفة المقتفى استطاع فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، أن يرغم السلطان السلجوقى سليمانشاه على النزول عن كل حق له فى بغداد ماعدا الخطبة .[٣]

على أن الضعف الذى أصاب السلاجقة وكان من أثره استعادة الخلفاء سلطانهم القديم فى العراق ، لم يكن راجعا إلى قوة الخلفاء ، وإنما كان راجعا إلى عوامل أخرى لم يكن للخلفاء دخل فيها ، ومن هذه العوامل ما يرجع إلى السلاجقة أنفسهم كانصرافهم إلى النزاع الداخلى فيما بينهم ، ذلك النزاع الذى أدى إلى انقسامهم، فهلكت دولتهم، وهلكوا بهلاكها . ومن هذه العوامل أيضا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٣ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٢ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٢٢ .

ما يرجع إلى النظام الإقطاعى العسكرى الذى أوجده نظام الملك فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، والذى ترتب عليه منح المقربين من البيت السلجوقى إقطاعات على سبيل الهبات ، أصبحت فيما بعد وراثية ، وقد أدى هذا النظام إلى انقسام الشرق الإسلامى إلى دويلات صغيرة مستقلة[١] .

وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انحلال الدولة السلجوقية وأصبح الشرق الإسلامى لقمة سائغة للمغيرين من الشرق ومن الغرب . أما من ناحية الغرب ، فقد ضاع نفوذ الخلفاء من البلاد الشامية ، واستطاع الصليبيون أن يؤسسوا لأنفسهم ويوطدوا نفوذهم فى أخصب بقاعها ، وقد أصبحت هذه البلاد مسرحا للحروب بين قادة الحملات الصليبية الذين أرادوا فرض سلطانهم على كل بلاد الشام ، وبين صلاح الدين الأيوبى وخلفائه الذين أرادوا صد عادية هؤلاء المغيرين مما سنفصله فيما بعد . وأما فى الشرق فقد أصبحت البلاد الإسلامية مطمعاً لقوى مختلفة متعادية ، فنجد أن قبائل الخِطا[٢] ، التى هاجرت من شرق آسيا وأسست لنفسها دولة حول مدينة كاشغر ، تحاول التوسع فى فتوحاتها وتأسس دولة فى بلاد المسلمين ، واشتد الصراع بينها وبين السلاجقة منذ سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) . وكان من أثر هذا الصراع أن هزم السلطان سنجر السلجوقى ، كما كان من نتيجته

---

(١) Hitti · History of the Arabs, p. 478.

(٢) تأسست دولة الخِطا فى إقليم التركستان ، فى مستهل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، على يد « يى لوشوتساى » Ye-lu Ch'u ts'ai ، وكان تأسيس هذه الدولة فى إقليم التركستان على حدود البلاد الإسلامية ، من الأمور التى سببت كثيرا من المتاعب للمسلمين بسبب اتجاه قادة هذه الدولة إلى توسيع أملاكهم على حساب الممتلكات الإسلامية . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن المغول أضافوا لفظ « قره » Kara إلى اسم الخطا فأصبحوا يسمون « قره خطا » Kara Khitai . ولفظ قره أو قرا ، لفظ مغولى أو تركى معناه أسود . أما سبب وصفهم بلون السواد فغير معروف ، ولعل ذلك يرجع إلى عداوتهم وكراهيتهم لهم . انظر : Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i, p. 210.
نقلا عن المصدر الصينى المعروف باسم « لياو شى Liao Shi » .

أيضاً اقتطاع الخطا بلاد ماوراء النهر[١] . ومنذ ذلك الحين لم ينقطع النزاع بين قبائل الخطا وبين السلاجقة ، وبينها وبين الخوارزميين الذين ورثوا أملاك السلاجقة فى الشرق[٢] .

كذلك نرى أنه حوالى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بدأت دولة جديدة تظهر فى شرق أفغانستان وتحل محل الدولة الغزنوية المتداعية ، ألا وهى الدولة الغورية . وقد استطاع قادة هذه الدولة أن يستولوا على مدينة غزنة[٣] نفسها سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، على أن الخوارزميين استطاعوا بدورهم أن يستولوا على أملاك هذه الدولة بعد أن ورثوا كل ما كان بيد السلاجقة من أملاك فى فارس بعد وفاة سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ، ثم اتجهت أنظارهم نحو الغرب ، وكان لهم فضل القضاء على السلاجقة فى العراق حينما استعان الخليفة الناصر العباسى بخوارزم شاه تكش ضد طغرلبك (آخر سلاطين السلاجقة فى العراق) ، بعد أن وعده بأن يملكه البلاد التى بيده ، إن هو استطاع القضاء عليه[٤] . وقد استطاع خوارزم شاه تكش فعلا أن يهدى الخليفة الناصر رأس طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م)[٥] . وهكذا زالت دولة السلاجقة نهائياً وبدأ عصر جديد من عصور الخلافة العباسية .

وقد حسب الخلفاء العباسيون أنه بزاول سلطان السلاجقة سيبدأ عهد جديد فى حياتهم السياسية يتمتعون فيه باستقلالهم بعد أن زال عدوهم الأكبر الذى يتمثل فى آل سلجوق . ولكن الخوارزميين الذين تحمسوا

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٤ .

(٢) انظر ما كتب عن نشأة دولة الخطا وعلاقتها بالقوى الإسلامية المعاصرة ، ومن أهمها دولتى السلاجقة والخوارزميين ، فى كتاب : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، للمؤلف .

(٣) تكتب مدينة غزنة فى بعض الكتب الفارسية « غزنين » . انظر كتاب النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ص ١٢٨ وغيرها من الصفحات .

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٤ .

(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ ص ٤٠ .

لإزالة الدولة السلجوقية كانوا فى الواقع يعمـلون لأنفسهم وفق خطة وضعوها منذ قامت دولتهم . فقد بدءوا يتطلعون إلى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية وأخذوا يعملون جاهدين على أن يحتلوا ما كان للسلاجقة من نفوذ سياسى فى الحاضرة الإسلامية . وليس هناك من شك فى أن الخليفة الناصر العباسى ، قد ارتكب خطأ سياسياً كبيراً حينما اســـتدعى خوارزم شاه تكش للقضاء على عدوه طغرلبك السلجوقى ، إذ أنه بعد أن أحل به الهزيمة قتله ونكل به ، ثم أعطى نفسه الحق فى أن يرث مجد السلاجقة فى الأراضى الإسلامية ، فبدأ يكتب اسمه على السكة ، وأكثر من ذلك أخذ يتطلع إلى فرض نفوذه السياسى على بغداد . وكان من أثر تعارض سياسة الخوارزميين، الذين ادعوا أنهم ورثوا السلاجقة فى كل شىء، مع سياسة الخلفاء الذين تنفسوا الصعداء بعد زوال الحكم السلجوقى ، كان من أثر ذلك قيام ذلك الصراع الطويل بين الخلفاء والخوارزميين ، ذلك الصراع الذى انتهى بانتهاء هاتين القوتين معا على يد المغول .

لوحة ٤



تمثال من الخزف الإيرانى يرجع إلى القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة، وأصله من مجموعة المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا .

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

الباب الثاني

النزاع بين أبناء البيت السلجوقي

نشأة النزاع وعوامله . الدور الأول : عقب وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . الدور الثاني : عقب وفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) . الدور الثالث : عقب وفاة محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) . أثر النزاع بين السلاجقة في انحلال دولتهم . ومحاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم .

الباب الثاني

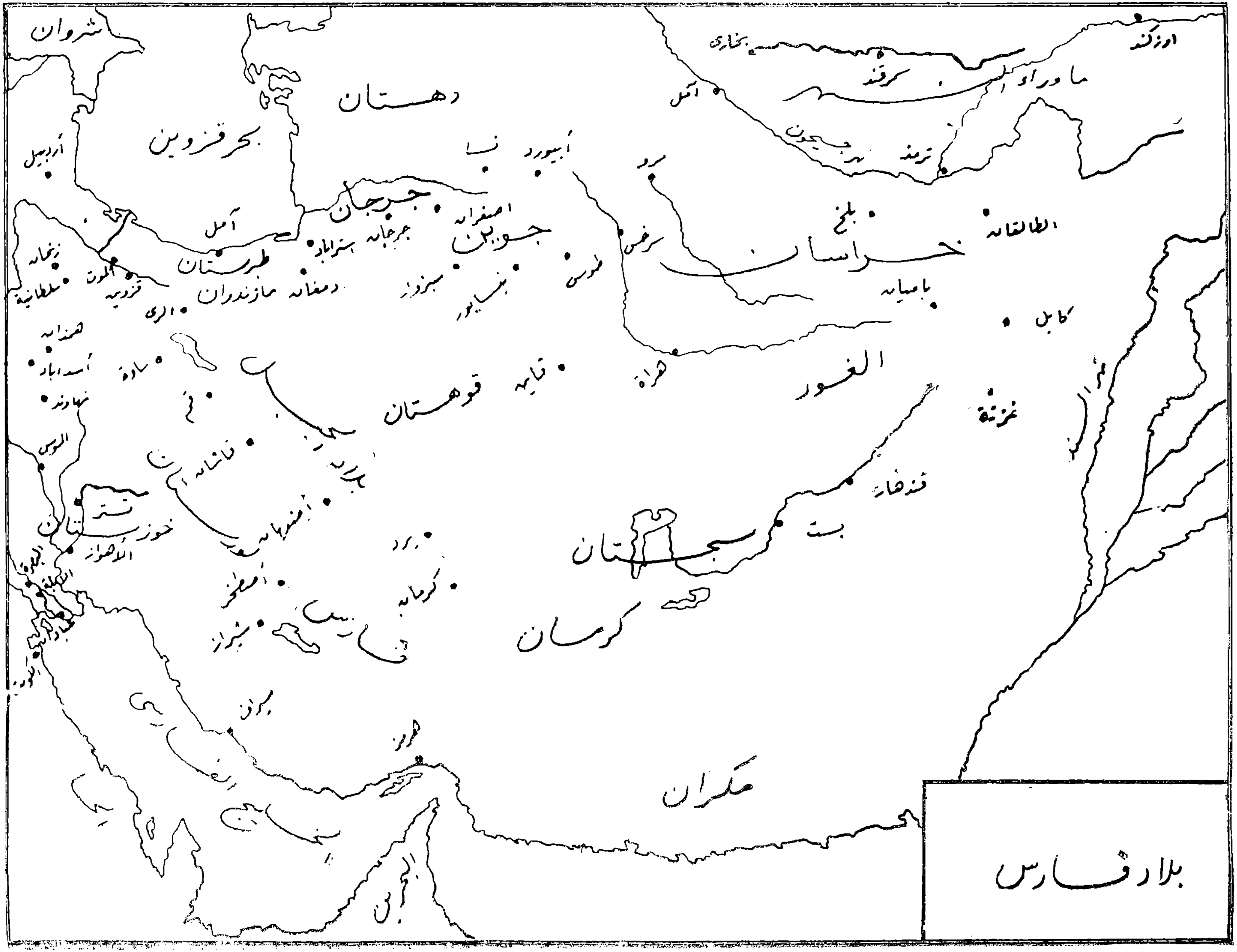
النزاع بين أبناء البيت السلجوقي

العوامل التى أضعفت الدولة السلجوقية كثيرة، ويمكن القول إن ضعف هذه الدولة كان مظهرا هاما من مظاهر ضعف الشرق الإسلامى بوجه عام، كما كان مظهرا من مظاهر انحلال الدولة العباسية بوجه خاص .

وأهم الأسباب التى أدت إلى انهيار دولة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه ثلاثة : النزاع بين أبناء البيت السلجوقى ، واستفحال شأن طائفة الإسماعيلية التى كان رائدها هدم كل القوى الموجودة فى ذلك الوقت لترتفع على أطلالها ، أما ثالث هذه الأسباب فهو قيام دول الأتابكة . وإذا جاز لنا القول بأن قيام دول الأتابكة كان من الأسباب التى أتت على الشرق الإسلامى عامة والدولة السلجوقية خاصة، فيمكن القول أيضاً إن قيامها كان نتيجة للعاملين السابقين ، إذ أن الانحلال السياسى الذى أصاب الدولة السلجوقية بسبب الصراع الذى قام بين أمراء السلاجقة وبسبب اتساع نفوذ طائفة الإسماعيلية، كل هذا ولد حركة انفصالية كان لها أكبر الأثر فى زيادة ضعف الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامى عامة . وكانت هذه الأسباب الثلاثة مجتمعة بالإضافة إلى أسباب أخرى ذكرناها فى مواضع أخرى كالحروب الصليبية، وظهور الدولة الخوارزمية الفتية وابتلاعها أملاك الدولة السلجوقية، هذا فضلا عن الصراع الذى قام بين الخلفاء العباسيين وبين السلاجقة — كل هذه الأسباب كان لها أثرها فى انحلال الدولة السلجوقية وسقوطها .

* * *

ذكرنا أن الشرق الإسلامى كان فى عصر ملكشاه متماسكا موحدا ، فقد استطاع هذا السلطان السلجوقى البعيد النظر أن يجنى ثمار جهود سلفه وأبيه ألب أرسلان ، فتمكن من أن يحافظ على ما كان لمملكته من قوة بل ويزيدها قوة على قوة ، كما استطاع أن يوسع رقعتها حتى شملت الدولة


شروان
دهستان
بحر قزوين
جرجان
طبرستان
مازندران
خراسان
ما وراء النهر
سمرقند
بخارى
ترمذ
مرو
سرخس
طوس
نيسابور
سبزوار
جوين
أبيورد
نسا
بلخ
قوهستان
هراة
الغور
كابل
غزنة
قندهار
بست
سجستان
كرمان
مكران
فارس
شيراز
اصطخر
كاشان
قم
ساوة
الري
قزوين
زنجان
همذان
نهاوند
السوس
تستر
الأهواز
أردبيل
آمل
بلاد فارس

خريطة ٢

السلجوقية فى عهده فارس وبلاد ما بين النهرين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد العرب ، وتمكن ملكشاه كما تمكن سلفه من قبل من أن يحد من نفوذ البيزنطيين ، وأن يضع حداً لأطماعهم فى البلاد الإسلامية . واستطاع السلاجقة فى هذا العصر أن يخلفوا جيلا جديداً من المحاربين يرجع إليهم الفضل فى وقف الصليبيين عند حد معين[١] . وعلى الرغم من أن المسلمين فى هذا العصر قد استعادوا قوتهم وهيبتهم التى كانوا قد فقدوها ، وعلى الرغم من ازدهار حضارتهم بفضل ما أوتى هذا السلطان من قوة وبفضل معونة وزيره نظام الملك[٢] ، على الرغم من هذا كله فقد كانت قوة السلاجقة قوة للعنصر التركى يقابلها ضعف للعنصر العربى ، يتجلى فى انحطاط قوى الخلافة العباسية .

على أن هذه القوة الإسلامية الكبرى ، وهى قوة السلاجقة ، ما لبثت أن انهارت بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، إذ أن هذا السلطان قد ورث أبناءه إمبراطورية كبيرة ، كما ورث العالم الإسلامى أبناءاً لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية ، فقد انشقوا على أنفسهم وأعمتهم المصلحة الشخصية فأسكرتهم فضلوا الطريق القويم، واستهوتهم الحروب الداخلية ولم يتبصروا عواقبها حتى أعمتهم عن النظر فى مصالح تلك الإمبراطورية التى تعب الأولون فى تكوينها ، فكانت النتيجة أن انقسمت دولة السلاجقة أقساما رئيسية أربعة : (١) سلاجقة العراق وفارس ، وهم الفرع الرئيسى للبيت السلجوقى . (٢) وسلاجقة سوريا، فى كل من حلب ودمشق . (٣) وسلاجقة كرمان ، وتمتد حدود دولتهم على الأراضى المتاخمة للمحيط الهندى . (٤) وسلاجقة الروم، فى آسيا الصغرى[٣]. وهكذا

---

(١) Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 150.

(٢) انظر ما كتبه Denison Ross فى هذا الموضوع تحت عنوان The Empire of the Seljuk Turks. فى مجموعة Universal History of the World, vol. 5.

(٣) Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Raman Empire, vol. vii, p. 23.

بعد ان كان الشرق الإسلامى موحد الكلمة ، انقسم على نفسه وانقسمت تبعا لذلك كلمة المسلمين ، فضاعت هيبتهم التى دفعت عنهم عدوان أعدائهم فى خارج دولتهم وفى داخلها .

وهنا نستطيع أن نتساءل، لم هذا الانقسام؟ وما الذى جعل هذه القوة تنهار دفعة واحدة ؟ يرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى انقسام أفراد البيت السلجوقى على أنفسهم بعد وفاة ملكشاه ، آخر شخصية سلجوقية قوية ، ففى فارس تنازع أبناؤه كل يريد السلطة لنفسه ، وفى بلاد الشام طمع أخوه تتش فى أن يمد نفوذه على مملكة أبيه وأدى ذلك إلى قيام حروب داخلية طال أمدها . وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أبناء ملكشاه فى العراق وفارس ، وبين هؤلاء وبين عمهم تتش فى سوريا . وكانت النتيجة أن تفككت القوة الإسلامية وتحطمت، وساعد على هذا التفكك ظهور قوة جديدة أرادت أن تعمل لنفسها على حساب الدولة السلجوقية بنوع خاص وهى الدولة الخوارزمية الناشئة . كما انتهزت القبائل التركية هذه الفرصة وأخذت تهاجم سهول آسيا الغربية[١] .

وتنقسم أدوار النزاع الذى قام بين أفراد البيت السلجوقى ، فى نظرنا إلى أدوار ثلاثة رئيسية : أولها عقب وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م). وثانيها بعد وفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) . ولم يأت الدور الثالث الذى بدأ بوفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) حتى كان البيت السلجوقى قد فقد سطوته وهيبته ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال، بل أصبح الشرق الإسلامى ومعه سلاطين السلاجقة وأمراؤهم كالمريض وهو فى النزع الأخير . ولا أريد فى هذا المقام أن أحصى كل صغيرة وكبيرة فى هذا النزاع ، وإنما أقتصر على التمثيل فقط لأهم أدوار هذا النزاع وهى كما قلت ثلاثة .

(١) Dubeux : La perse, p. 347.

الدور الأول :

وأما الدور الأول فيبدأ، كما قلنا، بوفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ھ (١٠٩٢ م)، فقد ترك هذا السلطان بعد وفاته أربعة أبناءهم بركياروق وكان فى الثانية عشرة من عمره ، ومحمدا وكان يصغره بستة أشهر ، وسنجر وكان فى الثامنة من عمره ، أما الابن الرابع محمود فكان طفلا فى سن الرابعة[١] . وكان لكل من هؤلاء حاشيته التى تهتم بشئونه وتحرص على أن تولى السلطنة من توصى به مصلحتها الخاصة وقد ساعد على ذلك أن هؤلاء الأخوة لم يكونوا أبناء أم واحدة ، فكان بركياروق مثلا من أم تدعى زبيدة ، ومحمود من أم تدعى تركان خاتون[٢] ، وكان محمد وسنجر من أم ثالثة[٣] . وقد أرادت تركان خاتون أن تكون السلطنة من نصيب ابنها محمود ، كما أرادها بركياروق لنفسه ، فنشأ بسبب ذلك نزاع طويل بين الطرفين .

كان بركياروق بمدينة أصفهان عند وفاة ملكشاه، أما محمود وأمه فكانا فى بغداد ، فبذلت تركان خاتون الأموال للأمراء واستحلفتهم على تولية ابنها محمود وساعدها فى ذلك وزيرها تاج الدين[٤] . وقد أرسلت تركان خاتون إلى الخليفة المقتدى تطلب السلطنة لابنها وإقامة الخطبة له على منابر بغداد . ولما اعتذر الخليفة لصغر سن محمود أكرهته على الموافقة[٥] ، وأقيمت الخطبة لمحمود ببغداد وبالحرمين الشريفين ، ولقب بناصر الدنيا والدين[٦]. وكان طبيعياً ألا يقف بركياروق مكتوف اليدين إزاء أخيه وهو الطامع فى عرش السلطنة ، فسار إلى الرى حيث جمع حوله أكثر من عشرين ألف

---

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 299.

(٢) Ibid., pp, 299 - 300.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٦١ ، ابن الأثير: الكامل ، ج ١٠ ص ١١٩ .

(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٧ .

(٥) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljugs, p. 35.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٨٨.

رجل ، نادوا به سلطانا على البلاد[1] . ولم تتردد تركان خاتون فى السير إلى محاربة هذا المنافس الخطر ، وعملت على القبض عليه . على أن بركياروق استطاع فى هذه الفترة أن يجذب إليه بعض جنود تركان خاتون وأن يتقوى بهم ، فلما سارت بجنودها واحتلت أصفهان ، سار إليها بركياروق وأسر وزيرها تاج الملك وقتله[2] . ولما ضيق بركياروق عليها الحصار اضطرت إلى إعطائه مبلغاً من المال فى مقابل رفع الحصار عنها، ولما قبض بركياروق الثمن ، رحل إلى همذان ، ولكن تركان خاتون أخذت تكيد له ، وانتهى هذا النزاع بالقبض على محمود[3] .

وفى أواخر سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، قدم بركياروق بغداد حيث وافق الخليفة المقتدى على أن يخطب له فى اليوم الرابع عشر من المحرم سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وأن يلقب بركن الدين[4] . ومن عجائب القدر أن الخليفة مات فجأة فى اليوم التالى ، أى فى الخامس عشر من المحرم . وقد ساعد الحظ بركياروق حين مات أخوه محمود بن ملكشاه فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وحين ماتت أمه فى نفس السنة[5] ، وبذلك استراح من منافسه .

وكانت الصعاب التى واجهت السلطان بركياروق فى بداية عهده كثيرة ومتشعبة ، إذ كان عليه أن يواجه عمه أرغون أرسلان الذى كان والياً على خراسان منذ أيام ملكشاه ، وعمه الآخر تتش الذى كان والياً على دمشق ، كما كان عليه أن يواجه أخويه ، سنجر ومحمد ابنى ملكشاه .

وإذا أردنا أن نقف على الصعاب التى واجهت بركياروق من جانب

---

(١) Browne : Account of a Rare Manuscript Hirtory of Seljugs, p. 35.

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٣٨ .

(٣) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljugs, p. 36.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٩٤ .

(٥) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ٩٧ ، ٩٩ .

أسرته ، فلا بد أن نعود قليلا إلى أواخر أيام ملكشاه ونتصور حالة الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت .

كان من سياسة ملكشاه أن يقطع حكم أقاليم دولته إلى المقربين إليه من أفراد أسرته وإلى من يثق فيهم من أفراد رعيته ، فانقسمت الدولة فى عهده أقساما كبرى تنقسم بدورها إلى أقسام أصغر منها .

وكان الولاة يتنازعون فيما بينهم كل يريد أن يوسع أملاكه على حساب الآخرين . فنجد ملكشاه يقطع أخاه تتش مدينة دمشق وأعمالها والبلاد المجاورة لها كطبرية وبيت المقدس[١] ، ويولى أحد المقربين إليه وهو آقسنقر مدينة حلب وأعمالها فضلا عن مدن حماه ومنبج واللاذقية[٢] ويقطع أخاه أرغون أرسلان خراسان[٣] . وكانت هذه الأقاليم الكبرى، كما قلنا، تنقسم بدورها أقساماً أصغر منها Sub-divisions بمعنى أن كل مدينة تقريباً كانت تحت حكم أحد المقربين من البيت السلجوقى . فلما مات ملكشاه ، طمع تتش فى السلطنة ، واستطاع أن يغتصب حلب من آقسنقر ويمد نفوذه على أنطاكية ويخطب لنفسه بالسلطنة فيها سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، كما استطاع أن يستولى على نصيبين ويقتل من أهلها عدداً كبيراً ثم يمد نفوذه على الموصل وميافارقين وديار بكر ويتوجه إلى أذربيجان . وكان نفوذ بركياروق فى ذلك الوقت قد قوى ، فسار لملاقاة عمه الثائر المغتصب ، فلما التقى الجمعان ، انضم آقسنقر بجيوشه إلى بركياروق كما تفرقت جيوش تتش فانهارت قوته ولم يستطع مواجهة جيوش بركياروق فقفل راجعا إلى بلاد الشام . وقد أقام آقسنقر عند بركياروق فترة عاد بعدها إلى بلاده ليكون عيناً على تتش[٤] .

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٢٤ـ٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١ – ١٨ . ويلاحظ أن آقسنقر كان مملوكا تركيا من مماليك السلطان ملكشاه ، وتربى معه منذ صغره ، فلما تولى السلطنة كان له فى نفسه من المنزلة ما كان لنظام الملك حتى أنه سماه « قسيم الدولة » .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠٨ .

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٢٤ـ٢٥ .

لوحه ٥



إناء من الخزف الإيرانى ذى الألوان المتعددة يرجع إلى القرن السابع الهجرى (١٣م).
ومحفوظ فى المتحف البريطانى .

ولم تهدأ نفس تتش بعد هذه الهزيمة ، إذ صمم على الانتقام من آقسنقر ، وقد تم له ذلك فقتله فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، واستطاع بذلك أن يمد نفوذه على كل بلاد الشام[١] وقد استمر النزاع بين بركياروق وعمه تتش إلى أن تمكن بركياروق من إلحاق الهزيمة به فى النهاية سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥م). وقيل إن قتله كان على أيدى جماعة من أنصار آقسنقر كانوا قد أقسموا على أن يثأروا له[٢] . وقد استمرت البلاد الشامية وأتابكية الموصل مسرحا لحروب كثيرة بين صغار الأمراء ، وبيئة صالحة لدسائس البيت السلجوقى فى بغداد حتى استطاع عماد الدين زنكى ونور الدين محمود من بعده أن يوحدا هذه البلاد من جديد ويخضعاها لسلطة واحدة[٣] . ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا التفكك الذى حدث فى قلب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام (٤٩١ — ٤٩٣ هـ = ١٠٩٧ — ١٠٩٩ م) ، إذ لم تكن هناك القوة الإسلامية التى تستطيع أن تقف فى وجهها ، ففضلا عن المنازعات التى قامت بين رضوان ودقاق ابنى تتش فإن هذه البلاد كانت مسرحا لنشاط الفاطميين فى مصر[٤] . ولم يقدر للبلاد الإسلامية أن تفيق للخطر الصليبى إلا على يد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود فيما بعد كما سنرى .

وهكذا نجد أن النزاع الذى قام بين أفراد البيت السلجوقى فى هذا الجزء من الشرق الإسلامى ، قد أدى إلى انتزاع الصليبيين معظم بلاد الشام من المسلمين .

أما العم الآخر لبركياروق الذى كان والياً على خراسان وهو أرغون أرسلان ، فقد طمع فى أن يستقل بما فى يده من البلاد عقب وفاة أخيه

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٢٨ــ٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٣٠ــ٣٧ ،

(٤) Barker : The Crusades, pp. 19 - 20.

ملكشاه . ولما كان في استقلاله بهذه البلاد ما يهدد وحدة الدولة السلجوقية، وهذا ما كان بركياروق يعمل جاهداً على تلافيه ، فإنه عول على مقاومته. وكان بركياروق في ذلك الوقت مشغولا بمحاربة أخيه محمود وعمه تتش[١]، فتركه مؤقتاً ، ولما أفاق واستعد لقتاله ، كان هـــذا العم الطامع قد قتل سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) على يد أحد الغلمان وبذلك امتد نفوذ بركياروق على خراسان[٢] ، فولاها أخاه سنجر في نفس السنة[٣] . ولم تقف متاعب بركياروق عند هـذا الحد ، إذ أن أخاه محمداً لم يقنع بأن يكون والياً على أذربيجان[٤] ، فناصب أخاه العداء وطمع في السلطنة . وزين له أتباعه سهولة الوصول إلى غرضه . وكان من أثر ذلك أن نشبت بين الطرفين حروب طويلة استمرت طيلة عهد السلطان بركياروق تقريباً .وليس من المهم أن نتتبع أدوار هذا النزاع،فقد استمرت الحرب سجالا بين الطرفين، ولكن المهم أن نذكر أن محمدا استطاع أن يدخل بغداد وأن يقيم الخطبة لنفسه فيها سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) بموافقة الخليفة المستظهر العباسي الذى خلع عليه الخلع والهدايا ، وكان بركياروق فى هذه الأثناء مريضاً[٥] ثم استمرت الحرب مع محمد طوال عهد بركياروق الذى تمكن من إعادة الخطبة لنفسه في بغداد . ومن المهم أن نذكر أن الخليفة هو الذى كان يسمح بإعادة الخطبة لكل من دخل بغداد من هذين السلطانين المتنازعين. وهذا يدلنا على مقدار ما وصلت إليه الخلافة من ضعف . ويلاحظ أن سنجر بن ملكشاه كان قد انضم إلى أخيه محمد في صراعه مع بركياروق ، ويرجع السبب في ذلك إلى ما ذكرناه من أنهما كانا ولدين لأم واحدة[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠٩ .

(٤) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 221

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٦١.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٢٣ ،

وقد انتهت الحرب بين محمد وبركياروق سنة ٤٩٧هـ (١١٠٣م)، إذ عقد الصلح بين الطرفين فى هذه السنة. ويقول السيوطى فى هذ المناسبة ما يأتى[١]:

« إن الحروب لما تطاولت بينهما ، وعم الفساد وصارت »
« الأموال منهوبة ، الدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة ، والسلطنة »
« مطموعاً فيها ،وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، »
« دخل العقلاء بينهما فى الصلح وكتبت العهود والإيمان والمواثيق »
« وأرسل الخليفة خلع السلطنة إلى بركياروق (بركيارق) ، »
« وأقيمت له الخطبة ببغداد . »

وقد توفى بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) فآلت السلطنة إلى ابنه ملكشاه (الثانى) ، وكان أبوه قد أوصى له بالسلطنة واستحلف قواده على ذلك . وكان طبيعياً ألا يرضى محمد عن هذا الوضع فاستولى على بغداد وقبض على ابن أخيه وسجنه بعد أن حكم عدة أسابيع ، فقد بعدها السلطنة كما فقد بصره [٢] . وقد تولى السلطنة بعد ذلك محمد بن ملكشاه (الأول) الذى حكم أكثر من ثلاثة عشر عاماً عمت الفوضى فى أثنائها جميع أنحاء الدولة فضعف الشرق الإسلامى أمام الصليبيين فى بلاد الشام، وأمام القوات الأخرى المعادية فى جوف الدولة الإسلامية، وأهمها طائفة الإسماعيلية .

الدور الثانى :

أما الدور الثانى من أدوار النزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، فيبدأ بوفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) .

فلما شعر السلطان محمد بقرب منيته ، أحضر ولده محمودا وأجلسه على كرسى السلطنة وأمره بتدبير أمور الدولة وهو إذ ذاك فى سن الرابعة

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٤ .

(٢) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 223.

عشرة [١] . ولما مات محمد بن ملكشاه ، لم يرض سنجر عن تولى هذا الصبى عرش السلطنة ، لذلك نجد أنفسنا أمام دور من أهم أدوار النزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، وقد التقى محمود بعمه سنجر بالقرب من مدينة ساوة سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م)، واستعان سنجر فى هذه المعركة بفرقة من الفيلة يرجع إليها الفضل فى انتصاره [٢] . على أن الصلح لم يلبث أن تم بين الفريقين وسار محمود إلى عمه سنجر فاكرمه وأقطعه البلاد التى تمتد من حدود خراسان إلى بلاد الشام وتشمل همذان وأصفهان وكرمان وفارس وخوزستان والعراق العربي وأذربيجان وأرمينية وديار بكر والجزيرة وبلاد الشام فضلا عن بلاد السلاجقة الروم وكانت هذه بيد قلج أرسلان [٣] .

وإذا نظرنا إلى هذه الأمبراطورية السلجوقية ، نجد أنها كانت خاضعة لمحمود بن محمد بن ملكشاه خضوعاً اسمياً فقط ، إذ كان الصليبيون قد انتزعوا معظم بلاد الشام وكونوا فيها الإمارات الصليبية الأربعة ، وهى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس والرها ، كما انتزعوا المدن الساحلية ، ولم يبق فى أيدى المسلمين إلا بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب [٤] ثم إن آسيا الصغرى كانت قد انفصلت تماماً عن قلب الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه . وكانت بلاد الجزيرة وأذربيجان وفارس وديار بكر وغيرها موزعة بين الأتابكة العديدين [٥] . ومن ذلك نرى أن التفكك والانحلال فى الشرق الإسلامى قد وصل إلى منتهاه ، وأن غريزة حب السيطرة كانت متغلبة على عقول السلاجقة فى ذلك الوقت . ومن أقرب الأمثلة على ذلك ، زيادة على ماتقدم ، أن السلطان سنجر ، على الرغم من أنه منح محمودا حكم

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٤٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٣ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٣٩-٤٠ .

(٤) Barker : The Crusades, pp. 25 - 32.

(٥) Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 152.

البلاد السابقة التي حكمها حكما اسمياً كما قلنا ، فإنه اشترط أن يذكر اسمه فى الخطبة قبل اسم محمود (١) . ولا يخفى أن ذلك معناه تبعية السلطان محمود لعمه سنجر ، وإن كانت هذه التبعية اسمية .

ولم تنته مصاعب السلطان محمود بإبرام الصلح مع عمه سنجر ، إذ كان عليه أن يواجه لفيفاً من أخوته الثائرين المتمردين العاصين . فعلى الرغم من أن هذا السلطان لم يجد طريقاً لمساعدة إخوته إلا سلكه ، من ذلك أنه ولاهم أقاليم الدولة المختلفة ، إلا أن وشاية الواشين استطاعت أن توقع بين هؤلاء الإخوة طمعاً فى الوصول إلى مركز معين ، أو الحصول على غنيمة ما إذا ما انتصر الأمير الذى ينتمى إليه هذا الواشى ، فدب الخلاف بينهم . وترجع الحرب التى قامت فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) بين السلطان محمود وبين أخيه مسعود ، الذى كان والياً على الموصل وأذربيجان فى ذلك الوقت ، إلى بعض هذه الوشايات (٢) .

الدور الثالث :

أما ثالث أدوار النزاع بين أبناء البيت السلجوقى ، فكان عقب وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ، فقد انقسم السلاجقة على أنفسهم إلى معسكرات ثلاث ، لكل أطماعه الخاصة فى السلطنة ، ولكل مؤيدوه من القواد والجند : معسكر على رأسه داود بن السلطان محمود الذى نودى به سلطانا عقب وفاة أبيه ، ومعسكر على رأسه كل من مسعود وسلجوقشاه ابنى ملكشاه وشقيق السلطان المتوفى . ومع أن هذين الأخوين كانا متفقين على مبدأ عزل ابن أخيهما داود ، إلا أنهما كانا مختلفين فيما بينهما ، إذ كان كل منهما يعمل على أن تكون السلطة لنفسه بعد إسقاط عدوهما المشترك ، ولذا دارت بين الفريقين حروب طويلة ، واستعان مسعود

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٨ ، ريخ الدولة الأتابكية ، ص ٤٢ — ٤٤ .

فى هذا النزاع بعماد الدين زنكى الذى كان قد استطاع أن يوطد سلطانه فى شمال العراق وسوريا فى ذلك الوقت. واستمرت الحرب سجالا بين الأخوين المتحاربين إلى أن اضطرا إلى عقد الصلح بعد أن تدخل الخليفة المسترشد العباسى بينهما، واتفق الطرفان على أن تكون السلطنة لمسعود، وأن تؤول إلى سلجوقشاه من بعده . ويرجع السبب فى نجاح مسعى الخليفة فى هذا الصلح إلى ظهور العدو المشترك، وهو سنجر بن ملكشاه .

أما المعسكر الثالث فكان يتكون من طغرل بن السلطان محمود، يناصره عمه سنجر . وقد استطاع سنجر أن يجمع من إقليم خراسان عدداً كبيراً من الجند هزم به مسعودا وأنصاره عند مدينة همذان ، ونادى بالسلطنة لابن أخيه طغرل [١]. ولم يكن من المعقول أن يرضى المعسكران الآخران عن تولية طغرل السلطنة ، لذا تضاربت مصالح البيت السلجوقى وتعقدت، فنشبت الحروب بين هذه القوى الثلاث ، وأدى ذلك كله إلى اضطراب الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت .

وقد انتهت أدوار النزاع بين أفراد السلاجقة بجلوس السلطان مسعود على عرش السلطنة سنة ٥٣٢ ﻫ (١١٣٧م). ويعتبر هذا السلطان آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء ، فقد استطاع أن يقف ضد القوى المعادية للسلاجقة وأهمها الخلفاء العباسيين . ثم مات مسعود سنة ٥٤٧ ﻫ (١١٥٢ م) ، ويعتبر المؤرخون هذه السنة بداية انحلال البيت السلجوقى فى العراق وبداية انتهاء سعادته [٢] . فقد استطاع الخليفه العباسى المقتفى (٥٣٠ — ٥٥٥ ﻫ = ١١٣٦ — ١١٦٠م) أن يحد من سلطان السلاجقة بل ويجعل منهم ألعوبة فى يده كما رأينا فى موضع آخر .

وقد زال سلطان السلاجقة فى فارس بوفاة آخر سلاطينهم الأقوياء

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٧٧ — ٨١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٣.

وهو السلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) . أما فى العراق فقد استمرت قوة السلاجقة تصارع الحياة والحياة تصارعها إلى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) حين قتل آخر سلاطينهم وهو طغرلبك [١] . والواقع أنه بوفاة كل من سنجر وطغرلبك انتهت الدولة السلجوقية تماماً ، وكانت الدولة الخوارزمية وريثتها .

وهكذا نجد أن الضعف فى أثناء هذا الدور الثالث قد دب فى صفوف السلاجقة حتى قدر لدولتهم أن تزول فى النهاية . وكان أهم عامل من عوامل انحلال دولتهم ثم زوالها ، هو تسلط غريزة حب السيطرة عليهم فانصرفوا إلى إشباعها ولم يهتموا بمواجهة أعدائهم فى الداخل والخارج على السواء . وقد وصف البندارى الانحلال الذى أصاب الدولة السلجوقية فى عصر السلطان سنجر بسبب النزاع بين أفراد البيت السلجوقى بقوله :[٢]

« لما امتدت مدة حياته (السلطان سنجر) ، وامتدت بالطول »
« مادة عمره ، تسلط الأمراء على سلطان أمره ، وتسحبوا على »
« قدره ، وحقر الصغير حق الكبير ، وتأخر الكبير لتقدم الصغير »
« واستخف الوقور ووقر الخفيف وصرف القوى وصرف الضعيف ، »
« ووقع التحاسد بينهم والتحاقد ، وارتفع وانحل التساعد والتعاقد . »

وجدير بالملاحظة هنا أن نذكر أن الخلفاء العباسيين الذين فقدوا هيبتهم فى عهد السلاجقة وفى عهد البويهيين من قبلهم ، أخذوا يثورون لكرامتهم منذ أيام الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ = ١١١٨ — ١١٣٥ م) ، منتهزين فرصة انصراف أمراء السلاجقة إلى الكيد لبعضهم البعض ، ولم يترك الخلفاء وسيلة لإضعاف السلاجقة حتى اتخذوها ، فكانوا يتدخلون فى النزاع القائم بين أفراد البيت السلجوقى ، منتصرين لفريق ضد فريق آخر حتى

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٠ — ٤١ .

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٥٢ .

إذا ما ضعف الفريقان، قويت الخلافة على حساب الفريقين المتنازعين معاً. ومن أقرب الأمثلة على صحة ما نقول، تشجيع الخليفة المسترشد للسلطان مسعود فى النزاع الذى قام بينه وبين أخيه طغرل، وإمداده بالمال والرجال لهذا الغرض[١]. كذلك نجد الخليفة الراشد (٥٢٩ – ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ – ١١٣٦ م)، يستعين بعماد الدين زنكى فى نزاعه مع السلطان مسعود[٢]. كما نجد الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ – ١٢٢٥ م) يحرض الخوارزميين ضد طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق[٣]، وتمكن علاء الدين تكش خوارزم شاه من قتل طغرلبك سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣م)، وأرسل رأسه إلى الخليفة فى بغداد[٤]،

وعلى هذا الأساس نجد أن سوء سياسة السلاجقة الداخلية وعدم إيجاد قانون لوراثة العرش يحترمه الجميع، كان من أهم العوامل التى أدت إلى انحلال دولتهم ثم زوالها، وبذلك وجدها الخوارزميون لقمة سهلة ولم يجدوا صعوبة فى ابتلاعها، فورثوا ما كان للبويهيين والسلاجقة من سلطان. على أننا نلاحظ أن النزاع الذى قام بين الخلفاء العباسيين وبين البويهيين والسلاجقة، نلاحظ أن هذا النزاع قد استمر أيضاً بينهم وبين الخوارزميين. وقد استفحل النزاع بين الطرفين، ولم ينته إلا بانتهاء كل من الخوارزميين والخلافة العباسية بعد أن قضى المغول على القوتين الواحدة تلو الأخرى.

---

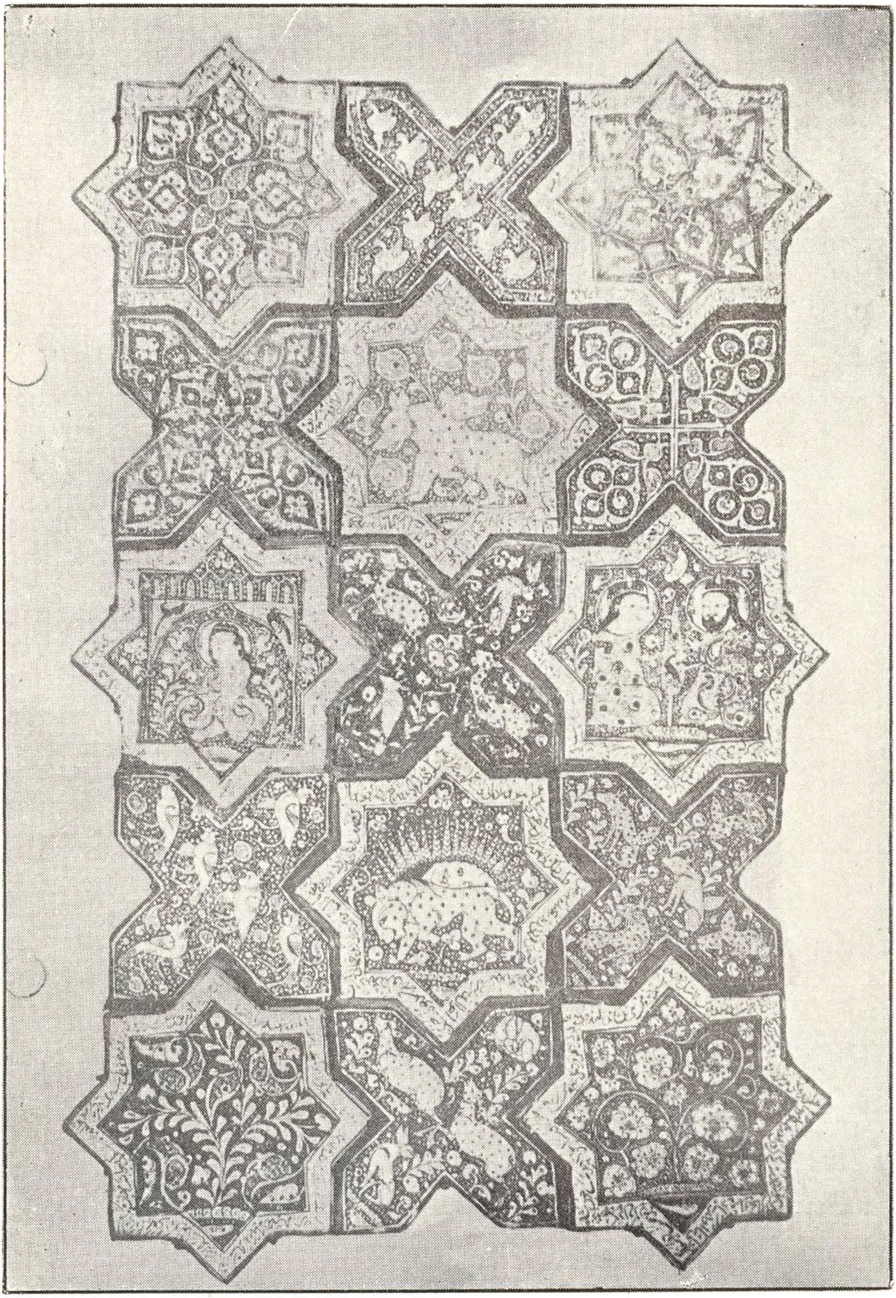
(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية، ص ٨٧–٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢–٩٦.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٩٤.

(٤) المقريزى: السلوك، ج١ قسم ١ ص ٤٠.

لوحة ٦



مجموعة من البلاط القاشانى ذى البريق المعدنى من القرن السابع الهجرى (١٣ م)

(عن كتاب الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى للدكتور زكى محمد حسن)

الباب الثالث

استفحال شأن طائفة الإسماعيلية

جهود الفاطميين فى نشر المذهب الإسماعيلى . عوامل نجاح الدعوة . نشأة الحسن بن الصباح . مراتب الدعوة . طبقة الفدائيين . استفحال شأن طائفة الإسماعيلية بعد وفاة ملكشاه . جهاد محمد بن ملكشاه ضد الإسماعيلية . سياسة سنجر بن ملكشاه إزاء الإسماعيلية . سياسة محمود بن محمد بن ملكشاه . مقتل الخليفتين المسترشد والراشد . غارات الإسماعيلية على البلاد الإسلامية . سياسة المغول تجاه الإسماعيلية .

الباب الثالث

استفحال شأن طائفة الإسماعيلية (١)

منذ أن استتب الأمر للفاطميين فى مصر ، أخذوا يروجون المذهب الإسماعيلى فى بلاد المشرق وسط أراضى الدولة العباسية . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إضعاف الخلافة العباسية فى النهاية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها . غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ – ٤٨٧هـ = ١٠٣٥–١٠٩٤ م) ، فادعى بعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار ، وأدعى بعض آخر أنه أوصى بها لابنه المستعلى ، فنشأت هناك بسبب ذلك فرقتان متعارضتان تناصر إحداهما نزارا وتناصر الأخرى المستعلى ، وقد اتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق مهدآ لها بزعامة الحسن بن الصباح ، ولذا سموا بالإسماعيلية الشرقيين ، أما الفرقة التى كانت تناصر المستعلى فقد بقيت فى مصر ، ولذا سمى أتباعها بالإسماعيلية الغربيين .

ولا يهمنا من تتبع تاريخ هذه الطائفة أن نتحدث عن دعوتهم الدينية إلا بالقدر الذى يعيننا على إيضاح هدفنا الأول وهو تأثير هذه الطائفة فيما

---

(١) سميت هذه الطائفة بالإسماعيلية لأن أتباعها يدينون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، واشتهروا أيضا بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، وسموا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٥. وقد عرفوا أيضا بالحشيشية . انظر ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٦٨ . وأبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ص ٥٢ ، ١٩٨ ، (طبعة R.H.C.O. tom. v.) . وقد سموا بهذا الاسم لاستخدامهم مادة الحشيش المخدرة فى التضليل بعقول من يدخلون الدعوة ، كما ذكرت مفصلا فى صلب الكتاب .

أصاب بلاد المشرق من ضعف فوق ما كان عليه من ضعف أدى فى النهاية إلى زوال الدولة العباسية على أيدى المغول .

* * *

لم يأت الحسن بن الصباح إلى بلاد المشرق ليضعف الشرق الإسلامى ، ولكنه استطاع أن ينتهز فرصة ما كانت عليه هذه البلاد من ضعف ليقوى بسلطانه ، فكانت النتيجة أن نشأ عامل جديد من عوامل إضعاف المسلمين ، عامل عنيف أدى إلى زيادة التفكك والانحلال ، إذ كانت السياسة المرسومة لنجاح هذه الطائفة تهدف إلى تقويتها على حساب الانقسام الدينى والعنصرى الحادث فى قلب الدولة (١) . ويتجلى الانقسام الدينى فى النزاع الذى قام بين السنيين والشيعيين نتيجة لما كان يبعث به الفاطميون فى مصر من دعاة يدعون للمذهب الإسماعيلى فى بلاد المشرق وإلقاء بذور الثورة فى أراضى الدولة العباسية (٢) . وثمة عامل آخر أدى إلى إضعاف الخلافة العباسية وبالتالى إلى ظهور طائفة الإسماعيلية ، وهو النزاع العنصرى بين البويهيين ثم السلاجقة وبين الخلافة العباسية ، هذا بالإضافة إلى النزاع الذى كان قائماً بين أفراد البيت السلجوقى أنفسهم والذى تكلمنا عنه فى الباب السابق . هذه العوامل الداخلية بالإضافة إلى العوامل الخارجية التى تتمثل فى الصراع القائم بين البيزنطيين والصليبيين من جهة وبين العباسيين من جهة أخرى ، كل هـذه العوامل كان لها أثرها فى تمهيد الطريق لنجاح الدعوة الإسماعيلية فى بلاد المشرق .

وكان لمدارس الدعوة الشيعية فى القاهرة أكبر الأثر فى نجاح الدعوة ، إذ أنها كانت ترسل دعاتها إلى كل بلاد فارس ، رغم أنهم كانوا موضع اضطهاد العباسيين وعرضة للهلاك أينما عثر عليهم ، مما أدى حتما إلى تماسك

---

(١) انظر كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للمؤلف ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) Von Hammer : Histoire de L'Ordre Des Assassins, p. 75.

هذه الفئة وتكاتفها ، شأنها فى ذلك شأن كل أقلية مضطهدة . وكان من أثر ذلك أن نجحت هذه الفئة نجاحا منقطع النظير ، وساعدها على ذلك بعد فارس عن بغداد مركز الخلافة العباسية . وكان البطل الذى استطاع أن يستغل كل هذه الظروف لمصلحته ومصلحة جماعته هو الحسن بن الصباح الذى استطاع أن يكون قوة لها شأنها ، كانت موضع هيبة الجميع ولم يستطع المسلمون أن يقفوا فى تيارها .

ويعتبر السلطان ألب أرسلان السلجوقى مسئولا إلى حد ما عن نجاح هذه الدعوة لأنه ألغى نظام البريد الذى كان معمولا به فى الدولة الإسلامية بإيعاز من وزيره نظام الملك ، فلم يهتم السلاجقة باستقصاء أخبار دولتهم مما ساعد على انتشار هذه الجماعة ونجاح دعوة الحسن بن الصباح ، يؤيد هذا القول ما ذكره البندارى فى العبارة الآتية [١] :

« وكان منهم (أى من طائفة الإسماعيلية) رجل من أهل الرى »
« (الحسن بن الصباح) ، وساح فى العالم ، وكانت صناعته الكتابة ، »
« نخفى أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى فى »
« مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة . وبدأ من القتل والفتك »
« بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحوالهم ودامت حتى استتبت »
« على استتار بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار . وكان الرسم فى »
« أيام الديلم (البويهيين) ومن قبلهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانبا »
« من صاحب خبر وبريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى »
« وحال الطائع والعاصى ، حتى ولى (ولا ، فى الأصل) فى الدولة السلجقية »
« (كذا) ألب أرسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك فى هذا الأمر »
« فأجابه أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ، فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من »

---

(١) البندارى : تارىخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ — ٦٣ .

« أصدقاء لنا وأعداء ، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر وكان له غرض »
« أخرج الصديق فى صورة العدو والعدو فى صورة الصديق . »
« فأسقط السلطان هذا الرسم لأجل وقعه من الوهم ، فلم يشعر إلا »
« بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معاقدهم وأخافوا »
« السبل وأجالوا على الأكابر الأجل » .

وهناك أمر آخر لا يمكن إغفاله عند التعرض للأسباب التى أدت إلى سرعة انتشار الدعوة الإسماعيلية فى بلاد المشرق ، وهو سوء الحياة الاجتماعية واضطراب الحالة الاقتصادية فى بلاد المشرق فى ذلك الوقت ، فضلا عن التباين الواضح فى توزيع الثروة بين مختلف الطبقات فى المجتمع الإسلامى . فبينما كانت رءوس الأموال مكدسة لدى فئة قليلة من الرأسماليين ، كانت طبقة العامة وأصحاب الحرف ترزح تحت براثن الفقر المدقع ، وتعانى ويلات العرى والحرمان والفاقة ، مما أدى إلى تكتل هذه الفئة وتكاتفها ، وأصبحت تتوق إلى التخلص من هذه الحالة بالثورة على طبقة الرأسماليين والطبقة الحاكمة . وإذا علمنا أن مبدأ الإباحية كان من أهم المبادىء التى سنها الحسن بن الصباح لجماعته [1] ، وهى مبادىء لا تخرج عن أن تكون استمرارا للمبادىء الفارسية الهدامة التى تتجلى فى الحركات المعروفة بالراوندية والمقنعية والخرمية وغيرها والتى تكلمنا عنها فى إيجاز فى الباب الأول [2] ، إذا علمنا ذلك ، أدركنا كيف ارتمت هذه الطبقة الساخطة فى أحضان الحسن بن الصباح فى شبه تكتل ، علها تستطيع أن تجد فى مبادئه فرارا من الفقر الذى يلاحقها . ونستطيع بعد ذلك أن نتصور كيف استغل الحسن هذا الشعور بين هذه الطبقات المعدمة ليقوى بمذهبه . وهكذا نرى أن الحسن قد استطاع أن ينفذ إلى غرضه عن طريق نشر الدعوة بين طبقة العامة من

---

(١) Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 29.

(٢) راجع ما كتبناه عن هذه الحركات الهدامة فى ص ١٩ — ٢٠ .

المعوزين ، مبتعداً عن طبقة كبار العلماء والمفكرين ، وكان فى ذلك سياسيا بارعاً .

* * *

نشأ الحسن بن الصباح شيعيا متحمسا لمذهبه، ودخل فى خدمة البيت السلجوقى منذ أيام السلطان ألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ = ١٠٦٣ — ١٠٧٢ م) ، ولكن شأنه لم يظهر إلا أيام ملكشاه نفسه . وقد طرد فى عهد ملكشاه من ديوان السلاجقة بسبب ميوله الدينية ، واعتناقه عقائد المذهب الإسماعيلى التى تتعارض مع مذهب نظام الملك ، وهو الوزير السنى المتعصب . وقد عين عبد الملك بن عطاش رئيس الدعوة الإسماعيلية بالعراق الحسن ابن الصباح داعياً فى مدينة أصفهان [١] ، ولكن الحسن رحل بعد ذلك إلى مصر ليتعمق فى دراسة المذهب الإسماعيلى . فخرج من أصفهان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) عن طريق أذربيجان وميافارقين ثم وصل إلى عكا ومنها ركب البحر متخفياً فى زى تاجر [٢] حتى وصل إلى مصر ، وهناك كان محل احترام الجميع وعلى رأسهم الخليفة المستنصر الفاطمى نفسه . وقد أخذ الوزير بدر الجمالى يكيد للحسن بن الصباح ، وتمكن من سجنه فى مدينة دمياط ، ولما أراد نفيه إلى بلاد المغرب قذفت به السفن إلى بلاد الشام . ويرجع البغض الذى كان يكنه بدر الجمالى للحسن بن الصباح إلى رغبة بدر الجمالى فى تولية المستعلى الابن الأصغر للمستنصر من بعده ، على حين كان الحسن ابن الصباح من القائلين بأحقية ابنه الثانى نزار للخلافة [٣]

ولما عاد الحسن إلى بلاد المشرق أخذ يتنقل فى بلاد العراق وفارس ،

---

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, 203.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٩٨ .

(٣) يرجع السبب فى رغبة بدر الجمالى تولية المستعلى الخلافة بعد أبيه المستنصر إلى أنه كان جده لأمه ، فقد كان الخليفة المستنصر الفاطمى متزوجا من ابنه بدر الجمالى .

ينشر مذهبه فى كل مكان يحل به ، كما حرص على أن يدعو للخليفة المستنصر ولابنه نزار من بعده .[١] وقد أخذ الحسن يستولى على كثير من قلاع البلاد الإسلامية ويتخذها حصوناً له ، وكان استيلاؤه على قلعة « ألموت » سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م)[٢] ، تلك القلعة التى بناها ملكشاه[٣] ، بداية لازدهار دعوته ، لأن استيلاءه عليها ساعـــده على أن يستولى على كثير من البلاد المجاورة ، وأن يؤسس كثيرا من القلاع فى إقليم خوزستان[٤] .

وقد استـولى الحسن بن الصباح على كثير من مدن قوهستان[٥] ، مستعملا اللين تارة والعنف أخرى ، بل أخذ يبنى القـلاع فوق الجبال ، وأصبح بذلك يهدد البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب[٦]

وسواء أكان الحسن بن الصباح يعمـــل لنفسه كما يقول ڤون هامر Von Hammer[٧] ، أم أنه كان يعمل للخليفة المستنصر ومن بعده لابنه نزار ، فإن غايته وغاية أتباعه فى النهاية كانت تهدف إلى إسقاط الخلافة العباسية . ولم يتردد الحسن بن الصباح ، من أجل الوصول إلى هدفه ، فى أن يسلك طرق القتل والإرهاب وسفك الدماء فى كل ناحية من نواحى البلاد الإسلامية . وقد ترك الحسن بن الصباح لتفـكيره العنان ، فلم يقنع بأن يكون داعياً للمذهب الشيعى فحسب ، بل أراد أن يكون ذا بأس وسلطان ولم يترك فرصة من الفرص إلا استغلها للوصول إلى هدفه . فلما كثر أتباعه وتكاثروا ، قسمهم سبع درجات رئيسية هى[٨] :

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٣٧ .

(٢) Sykes : A History of Persia, p. 54.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٤ .

(٤) Bretschneider : Mediæval Researches, vol. i, p. 116.

(٥) Sykes : A History of Persia, p. 54.

(٦) D'ohsson : Histoire des Mongols, Tom. iii, pp. 157—158.

(٧) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 84.

(٨) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 206.

لوحة ٧





الحسن بن الصباح بين أتباعه

(عن كتاب Universal History of the World, vol. 5.)

١ — داعى الدعاة The Chief Propagandist أو رئيس الدعوة The Grand Master ، ويسمى خارج نطاق طائفة الإسماعيلية بشيخ الجبل The Mountain Chief ،وكان الحسن بن الصباح فى هذه المرتبة .

٢ — كبارالدعاة The Grand Priors أو Superior Propagandists،وهم ثلاثة ممن يثق بهم الحسن بن الصباح ، ويختص كل واحد منهم بإقليم من الأقاليم التى يعمل الحسن على نشر الدعوة فيها وهى العـــراق العجمى ، وقوهستان ، وبلادالشام . وكان كل من هؤلاء الدعاة الكبار يعمل على نشر الدعوة فى الإقليم الذى بيـــده ، ويرجع فيما يعن له من الأمور إلى الحسن بن الصباح .

٣ — الدعاة The Ordinary Propagandists ، وكان هؤلاء من الذين تخرجوا فى مدارس الدعوة فى « ألموت »، وكانوا أكبر عون للفئة السابقة ويقيمون معهم فى أقاليمهم ، وكانت مهمتهم نشر الدعوة الإسماعيلية ولا سيما وأن هؤلاء كانوا من العارفين بأصول المذهب الإسماعيلى وأسراره.

٤ — الرفاق Companions ، وكان هؤلاء من المتبحرين أيضاً فى أصول المذهب الإسماعيلى ، والفرق بينهم وبين الدعاة ، أن هؤلاء كانت مهمتهم الإلمام بمبادىء الجماعة والمحافظة عليها دون أن يكون لهم حق نشرها كما يحدث عند طبقة الدعاة .

٥ — اللاصقون Adherents ، ولم يكن هؤلاء ممن تعمقوا فى معرفة أصول الدعوة ، ولكنهم من الذين تعهدوا بالطاعة والولاء للجماعة .

٦ — الفدائيون Self-devoted Ones ، وكانت هذه الطبقة أهم الطبقات التى اعتمد عليها الحسن بن الصباح ، فقد كانت الأداة التى استعملها للقضاء على أعدائه ، ولم يكن من الضرورى فى نظر الحسن بن الصباح أن يكون أفراد هذه الفئة من الملمين بمبادىء الدعوة ، وإنما يشترط فيهم أن يتفانوا فى طاعة رؤسائهم .

٧— المستجيبون، أو طبقة العامة The People ، وهم الذين دخلوا الدعوة.

وكان من سياسة الحسن اجتذاب أكبر عدد ممكن من المسلمين إلى صفوفه، وقد تمكن فعلا من أن يضع يده على مئات القلاع فى الأقاليم الإسلامية، لا فى الشرق وحده بل فى بلاد الشام أيضا، كما كان له فى كل مدينة أنصار، وفى كل إقليم قلاع تأتمر بأمره.

ويلاحظ أن الحسن بن الصباح كان يعتمد اعتمادا كبيرا على طبقة الفدائيين، الذين كانوا يضحون بأنفسهم فى سبيل طاعة رئيسهم طاعة عمياء ولذلك يعتبر الفدائيون سر نجاحه. وكان يختارهم من الشبان المتحمسين، الذين أصبحوا أداة للانتقام والذين أوقعوا الرعب والذعر فى قلوب جميع السكان فى بلاد المشرق [١].

وقد تدرب الفدائيون على فن التخفى واستعمال السلاح وتعلم اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع فى المساجد، كما يقتلون الأمراء المسيحيين فى الكنائس علنا [٢]. فقد وصل الأمر بهؤلاء الفدائيين، أنهم كانوا إذا أرادوا قتل أمير مسيحى، ادعوا الدخول فى المسيحية وأظهروا الولاء والإخلاص للدين الجديد، فيقبل القساوسة والرهبان عليهم ويظلونهم برعايتهم وبهذه الطريقة يتمكنون من التردد بكثرة على الكنائس، حتى إذا ما توجه هذا الأمير إلى الكنيسة للصلاة، وثبوا عليه وأردوه قتيلا. وكان الحسن بن الصباح إذا رأى أن يقتل أميرا من الأمراء أو خليفة من الخلفاء، أرسل إليه عادة ثلاثة من الفدائيين فينتهزون فرصة خروج ذلك الأمير للصلاة حتى إذا ما استقر بالمسجد وثب عليه الرجل الأول، وكال له

---

(١) Sykes : A History of Persia, p. 55.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 209.

(٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين، ص ٥٢.

الطعنات بخنجره ، وإذا فشل هذا الرجل أكمل الرجلان الآخران مهمته[١]. وعلى هذا الأساس ، راح كثير من رجالات الدولة الإسلامية فريسة لانتقام زعماء الإسماعيلية ، ومن هؤلاء الخليفتان المسترشد والراشد ، فقد قتل الأول على أيديهم سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) [٢]، وقتل الثانى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧ م) [٣] . ومن الشخصيات البارزة أيضا التى راحت ضحيتهم الوزير « نظام الملك » ، فقد قتله أحد الفدائيين سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢ م) [٤] .

ويحق لنا أن نقف هنا لنتعرف السبب فى تفانى أفراد هذه الطبقة فى طاعة داعى الدعاة ، وتسابقهم إلى التضحية بأنفسهم فى سبيل تأدية مايؤمرون به . ليس هناك من شك فى أن دعاة الدعاة قد عنوا بتربية طبقة الفدائيين ، فقد كان الكثيرون منهم يربون فى بيوتهم منذ نعومة أظفارهم وهناك يلقنون الاعتقاد بأن قوة داعى الدعاة إنما تفوق قوة البشر ، وأن فى مقدوره أن يضع فى الجنة من يشاء ويسلب هذا النعيم من يشاء ، كما ربوا على الاعتقاد بأن فى مقدوره أن يأتى بالمعجزات ، وذلك بفضل ماأوتى من دهاء وقدرة على التمثيل ، والخداع ، والشعوزة .

وقد وصف لنا إدوارد بروان Edward Browne [٥]، نقلا عما كتبه الرحالة ماركوپولو فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ماكان يفعله داعى دعاة الإسماعيلية ليجعل الفدائيين يعتقدون أن فى استطاعته أن يدخلهم الجنة متى شاء . فذكر ماركوپولو أن زعيم الإسماعيلية أمر بإنشاء حديقة متسعة غناء فى واد بين جبلين وملأها بأشجار الفاكهة المختلفة

---

(١) Harold Lamb : The Crusades, p. 30.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٩٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

(٥) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, pp. 207—208.

كما أقام فيها القصور الفخمة التى طلاها وزينها بطلاء من ذهب ، وحفر فيها قنوات ملأى بالخمور واللبن والعسل والماء . كما ملأ هذه الجنة بالجوارى الحسان اللائى يجدن العزف على آلات الموسيقى واللائى يجدن الغناء والرقص . وكان الحسن بن الصباح يرمى من وراء ذلك كله أن يعتقد من يرى هذا المكان أن هذه هى الجنة التى وعد الله بها عباده الصـــالحين . وكان داعى دعاة الإسماعيلية يحتفظ فى قصره بعدد من الغلمان ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، فيصف لهم الجنة حسب ماجاء عنها فى القرآن الكريم وفى آحاديث الرسول . ولكى يبرهن لهم على أن فى استطاعته أن يدخلهم هذه الجنة ، كان يخدرهم بمادة الحشيش ، ثم يحملهم إلى هذه الحديقة فى جماعات صغيرة قد تكون أربعة أوستة أوعشرة ، فى كل مرة . فإذا ماأفاقوا اعتقدوا أنهم فى جنة الفردوس . وبعد أن يروا بأعينهم الجنة التى وعدهم الله بها ، يحملون إلى قصر داعى الدعاة بنفس الطريقة . أى بعد أن يخدروا بمادة الحشيش ، فإذا ماأفاقوا آمنوا بقدرته وتفانوا فى خدمته وطاعته ، واعتقدوا أنهم فى حضرة نبى حقيق ، وفى هذه الأثناء يكون باقى الغلمان فى القصر قد استمعوا إلى وصف هذه الجنـــة ، فيتوقون بدورهم إلى دخولها .

ونتيجة لذلك كله ، كان داعى الدعاة إذا أراد قتل أمير من الأمراء ، سلط عليه أحد هؤلاء الفدائيين ، فلا يتردد فى السعى إلى تحقيق مايؤمر به ، اعتقادا منه أنه إذا أدى هـذه المهمة على خير وجه فستكون الجنة مثواه ، سواء عاد من هذه المهمة سالما أو لقى حتفه . وهكذا استطاع الحسن بن الصباح أن يثير الرعب فى قلوب الأفراد من المسلمين وغير المسلمين ، حتى اضطر الكثيرون أن يدفعوا الضرائب التى يفرضها عليهم دفعاً لشره .

على أن شر طائفة الإسماعيلية لم يظهر بوضوح ولم يستفحل إلا بعد

وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وقد ذكرنا فى موضع آخر أن الخلاف قد دب بين أبنائه على العرش وخاصة بين بركياروق وأخيه محمد ، كما ذكرنا أن هذه الأنانية البالغة بين أعضاء الأسرة السلجوقية والتى أدت إلى انصرافهم إلى الحروب الأهلية كان لها أثرها فى ازدياد قوة طائفة الإسماعيلية ، وامتداد شرهم فى هـــذا العصر إلى حياة الخلفاء وكبار رجال الدولة .

وليس هناك من شك فى أن ظهور الصليبيين وانشغال السلاجقة بمحاربتهم، كان له أثره فى انصراف السلاجقة عن الحسن بن الصباح وأتباعه. أضف إلى ذلك أن تفانى الفدائى فى سبيل تنفيذ ما يؤمر به كان له أثره فى خوف عامة الشعب من الإسماعيلية ، فاضطر الكثيرون إلى مسالمتهم ، بل وانضم الكثيرون إليهم خوفاً منهم واتقاء لشرهم .

وليس معنى ماتقدم أن شر طائفة الإسماعيلية لم يظهر إلا بعد وفاة ملكشاه ، ولكننا نقول إن خطرها لم يستفحل إلا منذ ذلك الوقت ، فقد قدر عددهم فى عهد ملكشاه نفسه بمائة وستين ألف رجل ، اتخذوا من الحصون ملجأ لهم [١] . وقد حدث أن أرسل ملكشاه بعض قواده عدة مرات للاستيلاء على قلعة ألموت مركز طائفة الإسماعيلية ، ولكنه لم يستطع القضاء على هذه الطائفة ؛ لتماسكها أولا ، ولتفانيها فى المقاومة ثانيا . بل من الثابت أن الحسن بن الصباح أرسل من استطاع أن يقتل نظام الملك نفسه لينشر بمقتله الرعب بين كبار رجال المسلمين ، ويبذر بذور الفوضى فى الدولة الإسلامية ، وربما كان الدافع له أيضا رغبته فى الانتقام من نظام الملك لعدائه الشخصى له كما ذكرنا .

وإذا كان هذا هو حال طائفة الإسماعيلية فى عهد ملكشاه ، أقوى

---

(١) Dubeux : La Perse, p. 346.

سلاطين الدولة السلجوقية ، فلا بد أن يكون شأنهم قد استفحل بعد وفاته وخاصة بعد أن تفاقم النزاع بين أبنائه . فقد انتهز زعماء الإسماعيلية هذه الفرصة وأخذوا يروجون لمذهبهم بطرق فوضوية قاسية ، منها خطف من يخالف مذهبهم وقتله . ومن الغريب أن بركياروق استعان بهذه الطائفة على أعدائه[١] . فكان طبيعياً أن يزداد نفوذها نتيجة لذلك ، كما كان طبيعياً أن تجلب له هذه السياسة عداوة المسلمين . وقد استغل أنصار أخيه محمد بن ملكشاه شعور المسلمين العدائى ضد بركياروق فاتهموه بالانحراف إلى طائفة الإسماعيلية ، ولذا لم ير بدا من أن ينفى هذه الشائعات عن نفسه بأن قلب للإسماعيلية ظهر المجن ، وأعمل القتل فى رقابهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا[٢] حتى بلغ عـــدد من قتلهم منهم سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) نيفا وثلثمائة[٣] .

ولم تكن حماسة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ — ٥١١ هـ = ١١٠٥ – ١١١٨م) ، أقل من حماسة أخيه فى التنكيل بهذه الطائفة وخاصة عندما رأى تماديها فى إيذاء المسلمين ونهب القرى ، وقطع الطرق ، وفرض الإتاوات على سكان القرى المجاورة لهم نظير الكف عن إيذائهم منتهزين فرصة ذلك النزاع الذى قام بينه وبين بركياروق ، فلما خلص محمد من مشاكله ، وضع نصب عينيه القضاء على هذه الطائفة حتى يأمن المسلمون شرها[٤] .

وقد استطاع السلطان محمد أن يستولى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) على قلعة « شاه ذر » القريبة من أصفهان ، وكانت هذه القلعة من أكبر معاقل

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٥٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٣٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٦٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨١ .

الإسماعيلية [١] . وليس أدل على خطر شأن طائفة الإسماعيلية فى ذلك العصر من الكتاب الذى أرسله السلطان محمد إلى عماله بالأقاليم بعد أن استولى على هذه القلعة ، وقد جاء فيه :

« الحمد لله على ما يسر نا له من إعزاز الدين ورفع عماده وقمع »
« أضداده واستئصال شأفة الباطنية المناهضين لعناده ، الذين »
« استركوا العقول الفاسدة فاستغووها بأباطيلهم واستهدوها »
« بأضاليلهم ، واتخذوا دين الله هزوءا ولعبا بما لفقوه من »
« زخارف أقاويلهم ، سيما ما سنى الله من فتح الفتوح وهيأ أسبابه »
« من النصر الممنوح بأخذ قلعة «شاه ذر» التى شمخ بها الجبل وبذخ »
« وكان الباطل باض فيها وفرخ . . . وفيها ابن عطاش الذى طار »
« عقله فى مدرج الضلال وطاش . . . وكان يستبيح دماء المسلمين »
« هدرا ويستحل أموالهم غررا ، فكم من دماء سفكت وحرم »
« انتهكت وأموال استهلكت ، وترات تجرعتها النفوس فما »
« استدركت ، ولو لم يكن منهم إلا ما كان عند حدثان أمرهم »
« بأصفهان من اقتناص الناس غيلة واستدراجهم خديعة ، وقتلهم »
« إياهم بأنواع العقوبات قتلة شنيعة ، ثم فتكهم عوداً على بدء »
« بأعيان الحشم وخيار العلماء ، وإراقتهم مالا يعد ولا يحصى من »
« محرمات الدماء إلى غير ذلك من هنات يمتعض الإسلام لها أى »
« امتعاض وما الله عن المسلم أن يتميز لها براض ، لكان حقاً »
« علينا أن نناضل عن حمى الدين ونركب الصعب والذلول فى »
« مجاهدتها ولو إلى الصين . وهذه القلعة كانت من أمهات القلاع »
« التى انقطع إليها رؤوس الباطنية كل الانقطاع ، فكان تبث »

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ .

« الحبائل منها إلى سائر الجهات والأقطار ، وترجع إليها نتائج »
« الفساد رجوع الطير إلى الأوكار [١] » .

وإذا دل هذا الكتاب على شيء فإنما يدل على مبلغ استفحال خطر الإسماعيلية فى بلاد الدولة العباسية بحيث أصبح خطرهم لايخفى على سلاطين آل سلجوق .

وبعد أن استولى السلطان محمد على هذه القلعة ، وجه جهوده إلى قلعة « ألموت » فسير إليها عدة حملات . وليس من المهم أن ندخل فى تفصيل هذه الحملات ، التى لاتعدو أن تكون مناوشات ومقدمة لحصار هذه القلعة ، وإنما المهم أن نذكر أن هذه الحملات إن دلت على شيء فإنما تدل على مبلغ ما وصل إليه الحسن بن الصباح وأتباعه من قوة استلفتت أنظار السلطان محمد خاصة والسلاجقة عامة مما دعاهم إلى مناهضتها .

وقد فقد المسلمون أكبر مناهض لهذه الطائفة بموت السلطان محمد سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م) ، إذ لو قدر له أن يحيا لعدة سنوات بعد ذلك ، لربما أتيحت له فرصة الاستيلاء على قلعة ألموت ، وأن يسبق المغول فى القضاء على هذه الطائفة فى عقر دارها . وقد ذكر ڤون هامر Von Hammer أن السلطان محمد بن ملكشاه كان متحمساً فى كفاحة ضد طائفة الإسماعيلية لدرجة أنهم خشوا بأسه فدسوا له السم فمات [٢]

وبموت السلطان محمد قام صراع عنيف بين السلطان سنجر بن ملكشاه وبين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كما ذكرنا فى موضع آخر ، وكان من أثر هذا الصراع أن استفحل شأن طائفة الإسماعيلية . فإن هذه الحروب الأهلية التى سادت عصر السلطان سنجر وأخوته قد مكنت الإسماعيلية من أن يدعموا قوتهم بطريقة تدعو إلى الإعجاب [٣]

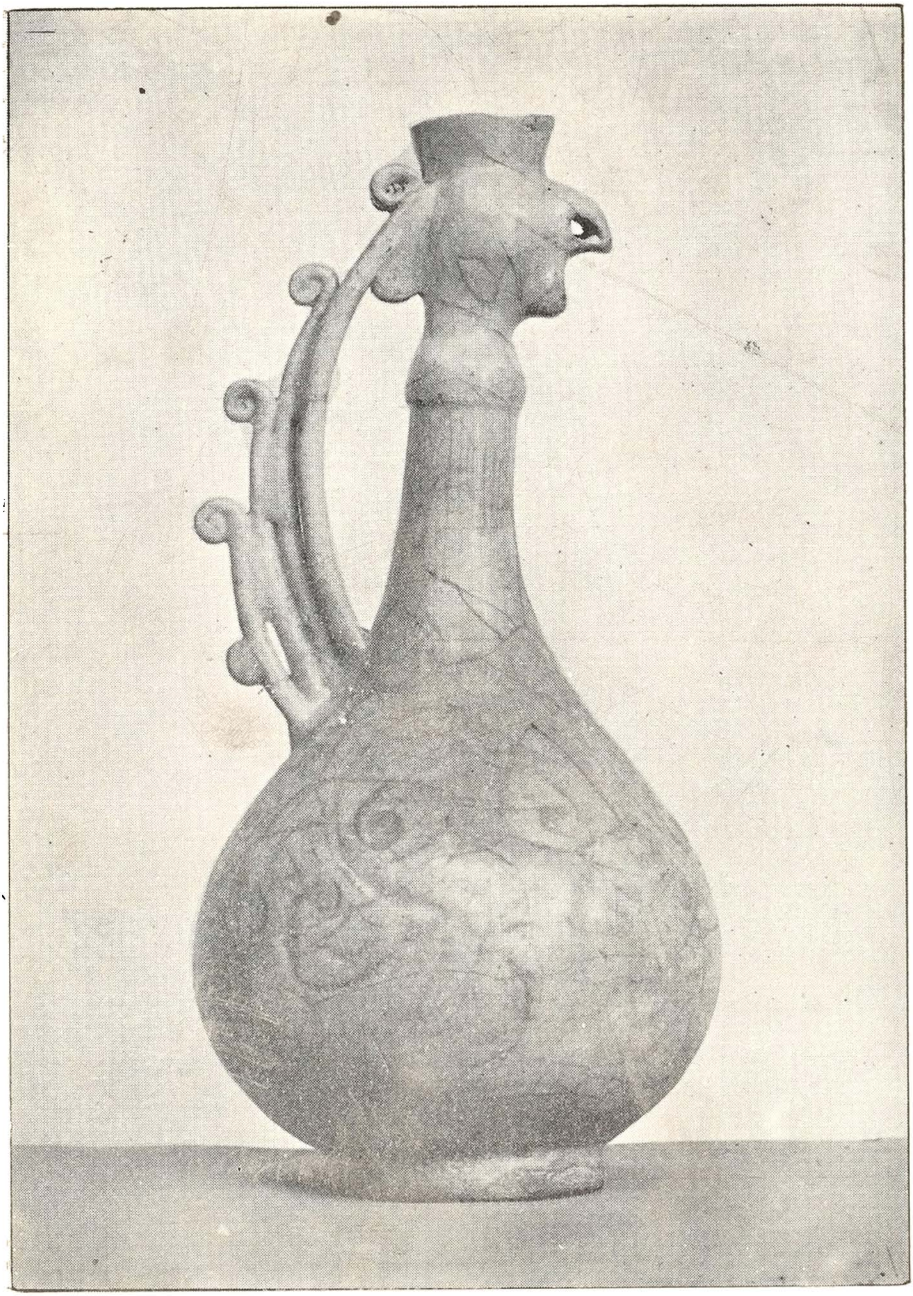
---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٣ .

(٢) Von Hammer : Histoire de LOrdre Des Assassins, p. 112.

(٣) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 312.

لوحة ٨



إناء من الخزف الإيرانى يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى (١٠ — ١١ م)
ومحفوظ بالقسم الاسلامى من متحف برلين

ورغم ذلك الشقاق الذى قام فى قلب الدولة السلجوقية ، فإن قوة الإسماعيلية وشعور المسلمين بجسامة خطرها ، كل ذلك جعل السلطان سنجر يوجه الكثير من عنايته إلى قلعة ألموت ، ابتغاء القضاء على الحسن بن الصباح الذى حاول أن يصد السلطان سنجر بالحيلة تارة وبالتهديد تارة أخرى ، ولما لم يستطع ، لجأ إلى حيلة طريفة تتلخص فى أنه اجتذب إليه إحدى وصيفات السلطان سنجر وأغراها بغرس خنجر بجوار فراشه ، حتى إذا ما استيقظ ، أخذه الفزع والرعب . ثم أتبع ذلك برسالة تهديد للسلطان سنجر يقول فيها : « إن الذى يستطيع أن يغرس هذا الخنجر فى الأرض اليابسة ، يستطيع أن يغرسه فى صدر السلطان [١] » . وكان لهذه الرسالة أثرها فى فك الحصار عن قلعة ألموت ، إذ خاف السلطان سنجر عاقبة هذا التحذير [٢] ، بل نجد هذا السلطان يعقد معاهدة فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) مع الحسن بن الصباح ، تعهد فيها الحسن بألا يزيد فى تحصين قلاعه ، أو يقوى نفسه حربياً بشراء آلات الحرب ، أو يدخل فى مذهبه آخرين . وفى مقابل ذلك تعهد السلطان سنجر بإعفاء الإسماعيلية من أهالى إقليم كردكوه من الضرائب .

وإذا نظرنا إلى هذه المعاهدة ، نرى أن السلطان سنجر قد أعطى ولم يأخذ ، إذ لم يعمل الحسن بن الصباح بما نصت عليه هذه المعاهدة [٣] ، بعكس السلطان سنجر الذى لم يوجه جهوده ضد الإسماعيلية بعد ذلك لفترة طويلة من الزمن .

---

(١) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 112.

(٢) Fraser : Historical and Descriptive Account of Persia, pp . 221-224. & Dubeux : La Perse, p. 347.

(٣) D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. iii, p. 161.

على أن سياسة السلطان سنجر والسلطان محمود بن محمد إزاء الإسماعيلية قد تغيرت بعد ذلك، وتحولت من سياسة المسالمة إلى سياسة العداء، إذ أن هذه الطائفة كانت تعمل حسب مبادئها الخاصة من حيث قتل الأفراد الذين يشك فى عدائهم، ولو كانت الفريسة من أقرب المقربين إلى السلطان، وذهب ضحية هذه المبادىء آقسنقر أمير الموصل عام ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)، وكان من المقربين إلى السلطان محمود. ثم إن هذه الطائفة أخذت تشيد القلاع الكثيرة، مما أثار غضب سلاطين السلاجقة. وربما يرجع السبب فى تغير سياسة السلطان سنجر تجاه طائفة الإسماعيلية إلى وفاة الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م)، وإلى شدة تعصب أتباعه لمذهبهم لدرجة أفقدتهم صوابهم. ولذا نرى أن سياسة سنجر العدائية تجاه الإسماعيلية تظهر بوضوح بعد هذه السنة، فنجد وزيره أبا نصر أحمد بن الفضل، وهو من أعظم المتحمسين ضدهم، يعلن الحرب عليهم سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)، ويأمر بقتل من يُعثر عليه منهم، كما نراه يأمر بنهب أموالهم وسبى حريمهم [١]. وهكذا نشأت بين الطرفين سلسلة حروب، حاول السلطان سنجر فى أثنائها أن يستولى على قلعة ألموت. وقد استطاع هذا السلطان سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) أن يقتل منهم أكثر من عشرة آلاف رجل [٢].

ولم تقل كراهة السلطان محمود بن محمد فى العراق للإسماعيلية عن كراهة السلطان سنجر لهم، فقد حنق عليهم لمقتل آقسنقر وأخذ يستعد لحربهم منذ عام ٥٢٣ هـ (١١٢٨ م)، بعد أن نهبوا مدينة البصرة [٣]. وقد رأى السلطان محمود أن يبادل هذه الطائفة العداء، إرضاء للسنيين من رعيته. وعلى الرغم من أنه تمكن من الاستيلاء على قلعة ألموت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م)،

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٢٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ج ١٠ ص ٢٧٦.
(٣) ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبار البشر، ص ٣٤ — ٣٥.

إلا أن هذا كان نصراً مؤقتاً ، فما لبث أن استرد الإسماعيلية قلعتهم بعد وفاته سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠م) ، إذ كان تنازع الأمراء من آل سلجوق على السلطنة من بعده وانتشار الفوضى فى العراق على أثر ذلك ، من الأمور التى شجعت الإسماعيلية على النهوض من كبوتهم . وكان من الطبيعى ألا يقتصر نشاط الإسماعيلية بعد ذلك على مناهضة السلاجقة وحدهم ، بل أصبحت سياستهم مزدوجة ، ترمى إلى مناوأة السلاجقة والخلفاء العباسيين معاً .

ولعله من الضرورى أن نذكر فى هذا المقام أن الخلفاء العباسيين أخذوا ينهضون من رقادهم فى هذه الفترة ، ويحاولون استعادة نفوذهم القديم ، واتخذوا من ضعف السلاجقة فرصة لتحقيق آمالهم . وكان من الطبيعى ألا يرضى السلاجقة عن هذه النهضة التى تؤدى إلى القضاء عليهم نهائياً إذا قدر لها النجاح ، لذا قام بين الخلفاء والسلاجقة صراع عنيف ، ولجأ السلاجقة إلى الاستعانة بالإسماعيلية على الخلفاء . ولذلك نرى أنه لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود ، قتل جماعة من الفدائيين الخليفة ومثلوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه[١] ، وكان ذلك بإيعاز من السلطان مسعود[٢] .

ويدلنا مقتل الخليفة المسترشد على مبلغ استهتار الإسماعيلية بأكبر رأس فى قلب الدولة الإسلامية . ولا يفوتنا أن نذكر أن هدف هذه الطائفة الأساسى ، كان إسقاط الخلافة العباسية . غير أن هذا الغرض لم يتحقق بمقتل الخليفة المسترشد ، إذ تولى ابنه الراشد من بعده وأخذ يعمل على الانتقام لأبيه من الإسماعيلية ، وكانت النتيجة أنهم قتلوه بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م)[٣] . وليس ببعيد أن يكون السلطان مسعود

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .
(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٩٨ ، Von Hammer, p. 140.

والسلطان سنجر هما اللذان دبرا قتله ، لعداوته لها وخاصةوأنهما كانا السبب في مقتل أبيه المسترشد[١] .

ونعتقد أن مقتل هذين الخليفتين ، كان له أكبر الأثر فى نفس الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة بعد ذلك والذين عرفوا أن حياتهم قد أصبحت فى أيدى طائفة الإسماعيلية ، فضعفت بذلك روحهم المعنوية ، وزاد ضعفهم ضعفاً . ويدلنا مقتل هذين الخليفتين أيضاً على مبلغ استهتار هذه الطائفة واستفحال أمرها فى الدولة الإسلامية حتى أنهم تجرأوا على الإيقاع برأس هذه الدولة فى شخص الخليفة العباسى نفسه .

على أننا نلاحظ أن العلاقة بين المسلمين عامة والإسماعيلية خاصة كانت فى هذه الفترة أشبه شيء بالمد والجزر . وليس من المهم أن نسرد حوادث هذا المد والجزر ، ولكن المهم أن نعلم أن الإسماعيلية قاموا فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) بهجوم عنيف من إقليم قوهستان ، معقلهم المشهور ، على خراسان فى سبعة آلاف رجل . ولعل هذا كان أول هجوم عام يقوم به قادة الإسماعيلية لغزو الأراضى الإسلامية . وقد أدرك المسلمون ما سيصيبهم من الهلاك إذا ما تهاونوا مع الإسماعيلية ، فجمعوا شملهم من كل جانب ، وواجهوا جيش الإسماعيلية دفعة واحدة ، وأفنوهم عن آخرهم ، بعد أن أسروا عددا كبيرا منهم . وكان هذا الانتصار انتصارا حاسما للمسلمين ، جعل الإسماعيلية ينكمشون فى قلاعهم مدة طويلة ، لهول ما أصابهم على أيدى العباسيين [٢] .

---

(١) يلاحظ أن السلطان مسعودا كان قد تمكن من خلع الخليفة الراشد وتولية المقتفى مكانه سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٦ م) ، فأخذ الراشد يتنقل فى البلاد الإسلامية ، ثم قتل وهو مريض بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) على يد الإسماعيلية . انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٩ . وهكذا نجد أن قتله جاء بعد خلعه من الخلافة ، ولا يبعد أن يكون السلطان مسعود هو الذى دبر قتله ، ليأمن شره ، ويضمن عدم إثارته للقلاقل والثورات فى قلب الدولة الإسلامية .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨١ .

ومن المهم أن نذكر أيضا أن صاحب مازندران أغار سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) على قلعة ألموت، وعلى الرغم من أنه لم يستطع الاستيلاء عليها إلا أنه تمكن من إشعال النار فى كثير من القرى المجاورة، وسلب ما بها من أموال، وسبى ما فيها من نساء، وأسر ما وقع فى يده من أبناء، وساقهم إلى أسواق النخاسة وعرضهم للبيع [١]. ومما لا شك فيه أن هزيمة الإسماعيلية هذه قد أثرت فى روحهم المعنوية إلى حد كبير.

ونلاحظ أنه بعد أن أخفق الإسماعيلية فى الاستيلاء على البلاد الإسلامية بهجومهم المنظم، عمدوا إلى السلب والنهب، وإثارة حرب أشبه ما تكون بحرب العصابات. فقد حدث مثلا أنهم قاموا فى سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨م) من قلاعهم بإقليم قوهستان فى نحو ألف وسبعمائة رجل، ونزلوا بالأقاليم المجاورة لهم بقصد سلبها ونهبها وسبى نسائها وأسر أطفالها وحرق ما لا يستطيعون حمله. وكان يسكن هذه الأقاليم جماعة من التركمان، كانوا متغيبين عن منازلهم فى الوقت الذى شن الإسماعيلية هجومهم؛ فلما عاد التركمان اقتفوا أثر الإسماعيلية، وتمكنوا من وضع السيف فى رقابهم حتى أفنوهم قتلا وأسراً، ولم ينج منهم، على ما ذكر ابن الأثير، إلا تسعة من الرجال [٢].

وكان الإسماعيلية لا يدخرون وسعاً فى مهاجمة التجار [٣] والحجاج [٤]، وأصبحوا بذلك لا يختلفون عن لصوص الطريق. وقد ساءت الحال فى البلاد الإسلامية لدرجة أصبح التاجر معها لا يأمن على بضاعته كما لم يعد المسلمون يأمنون على أرواحهم.

وربما شعر جلال الدين حسن، داعى دعاة الإسماعيلية، (٦٠٧ — ٦١٨ هـ = ١٢١٠ — ١٢٢١ م)، بما أصاب طائفته من ضعف، لدرجة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١١ ص ٨١.

(٢) المرجع نفسه، ج ١١ ص ٩٧.

(٣) المرجع نفسه، ج ١١ ص ١١٣.

(٤) المرجع نفسه، ج ١٠ ص ١٦٤.

أنها أصبحت لا تستطيع مقاومة الشعور الإسلامى العام لها ، أو مقاومة الدولة الخوارزمية التى وصلت إلى درجة كبيرة من القوة فى هذا العصر ، جعلتها تفكر فى إزالة الخلافة العباسية . ثم كانت هناك دول الأتابكة التى تكاتفت على الإسماعيلية، وعلى الأخص تلك التى كانت تجاور قلعة ألموت . فلما رأى جلال الدين حسن هذه القوى المناوئة له ، ورأى ما آلت إليه طائفة الإسماعيلية من ضعف ، فكر فى إرضاء هذه الجماعات بإقامة الشعائر الإسلامية فى جميع القلاع التابعة له فى قوهستان وسوريا[١]، وترك ما جاء به أسلافه من الأباطيل . ثم إنه أرسل سفراءه إلى الخليفة الناصر ببغداد وإلى علاء الدين محمد خوارزم شاه وإلى دول الأتابكة يعلن رجوعه إلى الدين الحق ، فاستقبل سفراؤه استقبالا حسنا ، وخلعت عليهم الخلع . وقد طلب جلال الدين إلى الأمراء المجاورين له بعض الفقهاء ليعلموا رجاله أصول التعاليم الإسلامية . ولكى يرى العلماء والفقهاء مدى صدق جلال الدين ، حرق أمامهم ما تركه له آباؤه من كتب تحوى تعاليم الدعوة السرية . وهكذا استطاع جلال الدين أن يجذب إليه أعداءه[٢] .

ويظهر أن جلال الدين لم يكن جاداً فى عودته إلى المبادىء الحقيقية للدين الإسلامى ، إذ أن ابنه علاء الدين محمد سرعان ما عاد إلى تعاليم أسلافه ، وحذا حذوه من جاء بعده من قادة الإسماعيلية . والظاهر أن جلال الدين ادعى الرجوع عن تعاليم الإسماعيلية ليرضى الخلافة العباسية ويستعين بها على الدولة الخوارزمية التى كان من سياستها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه ، القضاء على طائفة الإسماعيلية .

ولم تخف سياسة زعماء الإسماعيلية على الخوارزميين لاسيما بعد أن راسل جلال الدين حسن زعيم الإسماعيلية جنكيزخان بقصد التقرب إليه[٣] ، وحثه على مناهضة الدولة الخوارزمية بعد أن عجزت الخلافة عن

(١) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 219.

(٢) Ibid., p. 219.

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches, vol. i, p. 116.

مناهضتها. ثم حدث أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية اكتساحا خاطفا مات فى خلاله علاء الدين محمد خوارزم شاه وتولى بعده ابنه جلال الدين منكبرتى ، وحدث أيضا أن هزم جلال الدين وفر إلى بلاد الهند[١] ، فلما عاد إلى أقاليم الدولة الخوارزمية بعد عودة جنكيزخان إلى منغوليا ، وجد أن الإسماعيلية قد زادوا فى تخريب البلاد الإسلامية [٢] ، وأخذوا يتقربون إلى المغول فى عهد سلطنة جلال الدين منكبرتى ، ولما احتج على ذلك اعترفوا بالأمر ، وذكروا أن ذلك كان بقصد مداراة المغول الذين أصبحوا يجاورون أملاك الإسماعيلية جنوب بحر قزوين [٣] .

لكل هذه الأسباب ناصب جلال الدين منكبرتى طائفة الإسماعيلية العداء ، واضطر إلى محاربتهم فى سنة ٦٢٤ هـ (١١٢٧ م) ، ولم تجد هذه الطائفة سلاحا تدفع به الأذى عن نفسها إلا الالتجاء إلى المغول فسلطتهم على الخوارزميين ، وحثوهم على مهاجمة بلادهم فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) بعد أن وصفوا لهم ماوصل إليه الخوارزميون من ضعف [٤] . وقد أدرك المغول فى عهد مانجوخان خطر هذه الطائفة ، لاسيما بعد أن وصلته منهم عدة شكايات من الخليفة العباسى وقاضى قزوين [٥] ولهذه الأسباب مجتمعة نرى أن المغول عندما فكروا فى إزالة الدولة العباسية ، يدركون أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة فى ظهورهم ، وأنه لاسبيل إلى نجاحهم فى السيطرة على الشرق الإسلامى إلا بالقضاء على هذه الطائفة . لذلك أوصى مانجوخان أخاه هولاكو بالقضاء على هذه الطائفة قبل مسيره إلى بغداد [٦]

---

(١) Vladimirtsov : The Life of Chingis - Khan, pp. 131—132.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٧ .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٢١٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٥) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 257.

(٦) Ibid., p. 258.

ومن الثابت أنه لم يخف على زعماء الإسماعيلية ماينتظرهم من خطر محقق على يد المغول ، كما لم يخف عليهم أن المغول الذين حطموا بالأمس القريب دولة الخوارزميين ،والذين كانوا يتوقون إلى توسيع أملاكهم فى الغرب ، لابد أن يعرجوا على قلاعهم وأن يخضعوها وهم فى طريقهم إلى غرب آسيا وأوربا . لذلك نجد داعى دعاة الإسماعيلية يرسل فى سنة ٦٣٥ ه (١٢٣٨م) إلى ملوك فرنسا وانجلترا يطلب إليهم التحالف معه بقصد مقاومة المغول . فلما مثل رسولهم بين يدى الملك هنرى الثالث Henry III ، قال أسقف ونشستر Winchester الذى كان حاضرا الاجتماع : « لندع هؤلاء الكلاب يفترس بعضهم البعض ثم ننشىء كنيسة كاثوليكية على أنقاضهما »[١]. وهكذا نرى زعماء الإسماعيلية يخفقون فى تكوين هذا الحلف ، ولو نجحت هذه الفكرة لنشأت فى الشرق الإسلامى حروب على غرار الحروب الصليبية ، ولتغير مجرى التاريخ الآسيوى والأوربى لعدة قرون .

وقد نجح هولاكو فى اكتساح قلاع الإسماعيلية ، فسار إليها فى العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ ه (١٢٥٦ م) ، ووجه جميع قـــواته إليها وحاصرها فاستولى عليها الواحدة تلو الأخرى[٢] . وقد أسر هولاكو ركن الدين خورشاه ، داعى دعاة الإسماعيلية فى ذلك الوقت وأرسله إلى مانجوخان ، فرفض مقابلته وأمر بإبعاده إلى بلاده ، غير أنه قتل فى الطريق[٣] . وقد انتهى أمر الإسماعيلية فى بلاد فارس بعد استيلاء هولاكو على قلعة ألموت رغم أن بعض قلاعهم ظلت تقاوم المغول ردحا من الزمن حتى خضعت لهم فى النهاية . وعلى الرغم من سقوط حصون الإسماعيلية فى فارس ، فقد بقيت لهم بعض القلاع فى بلاد الشام لم يهتم المغول بالاستيلاء عليها ، مكتفين بما أحرزوه من نصر على هذه الطائفة فى فارس ، إذ اعتقدوا أنه لاسبيل إلى قيام الإسماعيلية من جديد .

---

(١) Sykes : The Quest for Cathay, p. 87.

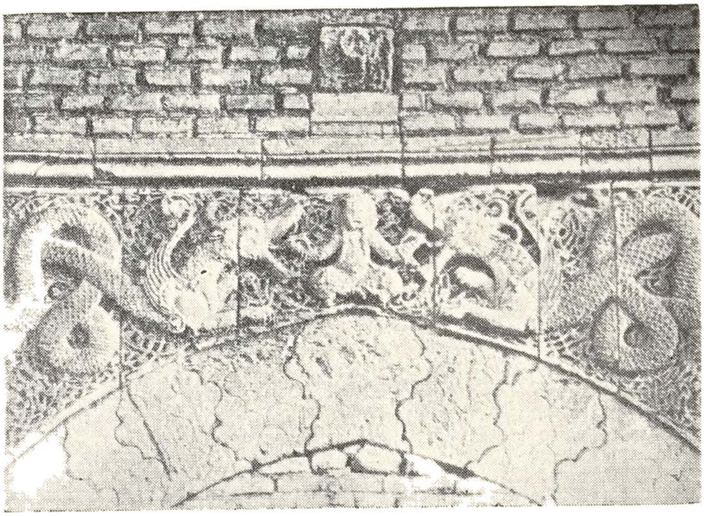
(٢) Rashid El Din ; Histoire des Mongols de la Perse, pp. 191-221

(٣) Bretschneider ; Mediæval Researches, vol. i, p. 118.

لوحة ٩



إناء من الخزف الإيرانى المتعدد الألوان وذى الزخارف البارزة يرجع إلى القرن السابع الهجرى (١٣ م)، ومحفوظ بالمتحف البريطانى



نقش بارز كان على باب الطلسم فى بغداد يرجع إلى القرن السابع الهجرى (١٣ م).
(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

الباب الرابع

قيام دول الأتابكة

ضعف الدولة السلجوقية وأثره فى قيام دول الأتابكة . اتساع نفوذ الأتابكة بعد وفاة ملكشاه . دول الأتابكة : دمشق ، الموصل ، حلب ، سنجار ، الجزيرة ، إربل ، ديار بكر ، أرمينية ، أذربيجان ، لورستان ، فارس ، كرمان ، دولة خوارزم .

الباب الرابع

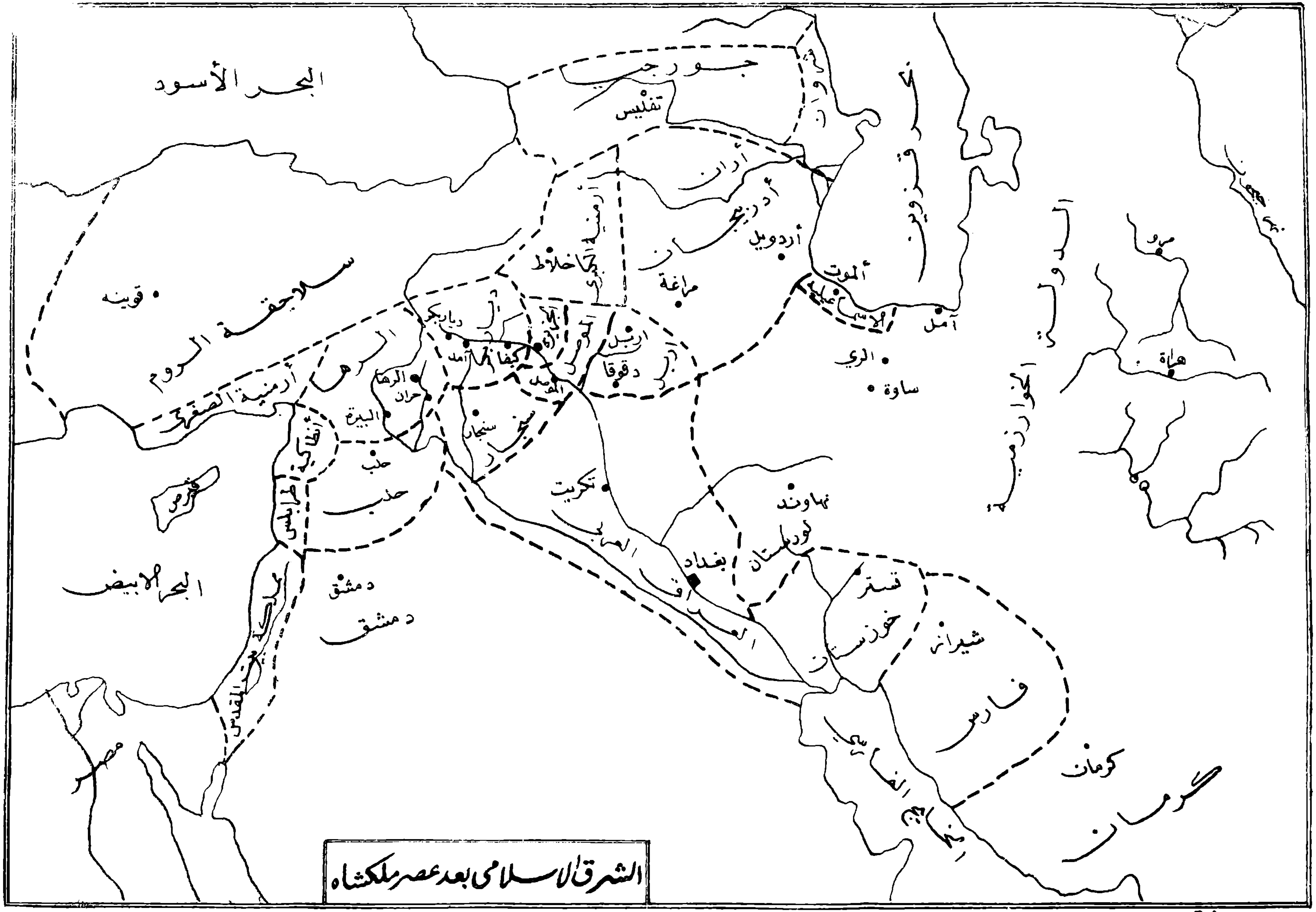
قيام دول الأتابكة

بلغت الدولة العباسية أقصى اتساعها فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى وتمتعت دولة السلاجقة كما تمتع العالم الإسلامى الشرقى بوحدة لم تعرفها الدولة العباسية منذ نشأتها. ولكن هذه القوة المتماسكة انتهت بانتهاء حياة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م). ويرجع السر فى انهيار قوة الشرق الإسلامى بعد وفاة ملكشاه بوجه خاص إلى أن السلاجقة الذين اهتموا بالحروب وإخضاع البلاد لسلطانهم، والذين عرفوا بإصلاحاتهم العمرانية، لم يهتموا بوضع دستور اجتماعى يحترمه الجميع، فلم يعملوا على إيجاد نظام دقيق لوراثة عرش السلطنة. وكأن الحضارات التى وجدوها فى البلاد التى فتحوها لم تؤثر فى طبيعتهم الأصلية وحياتهم البدائية الأولى التى تعودوها، وهى لا تعدو أن تكون حياة همجية لا نظام فيها، فانشغل أبناء ملكشاه وأحفاده، كما ذكرنا، بالنزاع الداخلى على عرش السلطنة، ذلك النزاع الذى أدى إلى اضمحلال دولتهم تدريجياً، ثم إلى زوالها من مسرح التاريخ الإسلامى، إذ أدى هذا الاضطراب إلى تفكك الدولة السلجوقية وانقسامها إلى دويلات، كما أدى ذلك كله إلى نجاح الصليبيين فيما اعتزموا أن يقوموا به فى بلاد الشام، إذ لما جاءت حملتهم الأولى إلى البلاد الشامية سنة ٤٩١ هـ (١١٩٧ م)، صادفوا بلاداً مفككة ضعيفة، فأدوا رسالتهم على أكمل وجه [1].

وإذا نظرنا إلى طبيعة تكوين الأمبراطورية السلجوقية نجد أنها قد

---

(١) Nöldéke : The Abbasids, p. 228. (The Historians' History of the World, vol. vii.)


الشرق الاسلامى بعد عصر ملكشاه
البحر الأسود
جورجيا
تفليس
أران
أذربيجان
أردويل
مراغة
ألموت
آمل
الري
ساوة
سلاجقة الروم
قونية
أرمينية الصغرى
الرها
حران
البيرة
أنطاكية
حلب
قبرص
طرابلس
البحر الابيض
دمشق
بيت المقدس
مصر
ديار بكر
آمد
كيفا
خلاط
الموصل
إربل
دقوقا
سنجار
تكريت
بغداد
العراق
نهاوند
لورستان
تستر
خوزستان
شيراز
فارس
كرمان
الخليج الفارسي
خوارزم
مرو
هراة

خريطة ٣

امتدت فشملت أقاليم مترامية الأطراف ، كما شملت شعوباً وأجناساً متعددة ،فحكمت الفرس والعرب والأتراك ، وكان هؤلاء المحكومون يختلفون بعضهم عن البعض الآخر فى اللغة والدين ، بل أكثر من ذلك نرى أصحاب الديانة الواحدة منقسمين بدورهم على أنفسهم ، كل له مذهبه الدينى الخاص .

وقد اعتمد سلاطين السلاجقة فى حكم هذه الدولة على سلاح القوة دون غيره ، فلما فشلوا فى هضم هذه العناصر والأجناس التى تضمها دولتهم، بل ولما تضعضع كيانهم السياسى بعد وفاة آخر شخصية سلجوقية قوية ، لم يكن هناك بد من أن يعمل كل فريق تربطه وحدة الدين واللغة والعادات والتقاليد على أن يستقل بنفسه عن بقية الأجناس والعناصر الأخرى الموجودة فى الدولة . لذلك استقلت آسيا الصغرى ذات الطابع البيزنطى ، ونشأت هناك وحدة فى فارس تغلب عليها المسحة الفارسية القديمة ، كما نجد سوريا ، حيث الطابع العربى ، تستقل بنفسها . كل هـذه الوحدات نجدها تنسلخ عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية . وقد ساعد على هذا الانقسام ضعف السلاجقة بعـــد وفاة ملكشاه وانقسامهم على أنفسهم كما ذكرنا .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل نجد أن هذه الوحدات الكبرى تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر منها ، ويرجع هذا إلى نظام الإقطاع الذى ابتـدعه السلاجقة ، وطبقوه فى أقاليم دولتهم ، وهو يشبه نظـام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوربا فى العصور الوسطى .

• • •

منذ أن امتدت الدولة العباسية فى بلاد المشرق ، تاخمت أملاكها أملاك القبائل التركية التى تقطن على حدودها . وكانت هذه القبائل منتشرة فى شمال وشرق بحر قزوين ، فكان المسلمون ينتهزون الفرص لاختطاف الأطفال الذين يجدونهم على الحدود ويرسلونهم إلى أسواق النخاسة التى

كانت منتشرة فى أقاليم الدولة العباسية فيقبل الخلفاء والأمراء على شرائهم ويكثرون منهم فى بلاطهم ، مندفعين إلى ذلك بحسن منظرهم وجمال خلقتهم، على أن أكثر مماليك السلاجقة الذين أصبحوا فيما بعد أتابكة كانوا فى الغالب من بلاد القفجاق الواقعة شمال البحر الأسود (١) .

ويحدث بعد ذلك أن يعتنق هؤلاء الأتراك الدين الإسلامى ، فينشاون نشأة إسلامية صحيحة فى بلاط الخليفة أو السلطان ، ويعهد إليهم ببعض الوظائف، كرياسة الخدم وتنظيم القصور ، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان، فإذا ما أظهر أحدهم كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة ، وصل إلى أعلى المراتب فى الجيش وفى البلاط (٢) . وقد يسعد الحظ أحد هؤلاء فيعهد إليه حكم إقليم من أقاليم الدولة، ومن أقرب الأمثلة على ذلك «نوشتكين» (٣) الذى تنسب إليه الدولة الخوارزمية وكان يشغل وظيفة الساقى (٤) فى بلاط ملكشاه (٥) .

---

(١) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 159.

ومما هو جدير بالذكر أن اسم « قفجاق » يكتب فى الكتب التركية « قپچاق » Kipchak . انظر كتاب عثمانلى تاريخى لأحمد راسم ، ص ١٢٩ وغيرها . وانظر أيضا كتاب لغات تاريخية وجغرافية لأحمد رفعت ج ٦ ص ٦ وغيرها .

(٢) Curtin : The Mongols' History, p. 93.

(٣) يسمى بعض المؤرخين هذا الرجل باسم « أنوشتكين » ولكنا نميل مع النسوى فى كتابه : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، إلى تسميته باسم « نوشتكين » . والنسوى الذى يؤرخ لفترة من فترات حكم الخوارزميين ، يعتبر حجة فيما دون ، إذ أنه انخرط فى سلك الوظائف فى دولتهم فى عهد جلال الدين منكبرتى بوجه خاص ، وكان من أبرز رجال هذه الدولة.

(٤) كانت وظيفة « الساقى » من أهم الوظائف فى البلاط الإسلامى ، فهو الذى يشرف على مد الأسمطة التى كانت تقام فى المواسم والأعياد وعند استقبال سفراء الملوك ، وهو أيضا الذى كان يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٩ .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أنه كانت توجد هناك وظيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان وهى وظيفة « الجاشنكير » ، وهو الذى كان يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل أن يأكل منها السلطان خوفا من أن يكون هذا الطعام أو الشراب مسموما . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ .

(٥) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 160.

وليس من المعقول أن يظل هـذا الحاكم خاملا فى المقاطعة أو المدينة التى ولى الحكم فيها بل لا بد من أن يعمل على أن يوسع نفوذه على حساب جيرانه ، وقد ينجح فيؤسس لنفسه دولة ، وإذا فشل فيكون قد نجح فى إلقاء بذور الفوضى فى جزء من أراضى الدولة الإسلامية .

وقد انتشر نظام الأتابكة فى الدولة السلجوقية ، وأصبح هـذا النظام عنصرا هاما من نظمهم السياسية والاجتماعية . أما لفظ أتابك فمعناه « الأمير الوالد » [١] أو أبو الأمير . ويرجع الأصل فى ذلك إلى أن سلاطين السلاجقة كانو يعهدون فى تربية الأمراء من أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا فى كنفهم ، فإذا ما عين سلطان ما ابناً من أبنائه على مدينة من المدن ، ذهب معه هذا التركى (الوالد) ليعاون هـذا الأمير فى حكم المدينة بما أوتى من حكمة ويسدى إليه ما يراه من النصائح . على أن السلاجقة توسعوا بعد ذلك فى معنى هذا الاسم ، بحيث أصبح يمنح كلقب من ألقاب الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيوش [٢] .

والمهم أن نذكر أن الحكام من الأتابكة ، سواء أكانو مربين لأمراء السلاجقة أو من قواد جيوش الدولة السلجوقية ، فإنهم كانوا فى الواقع أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد التى يعهد إليهم بالحكم فيها ، وكانوا يعملون لحسابهم الخاص ، منفصلين فى سياستهم عن سياسة سلاطين السلاجقة فى بغداد ، كما أنهم اتخـــذوا لأنفسهم الألقاب التى استحسنوها [٣] ، ومن الألقاب التى اتخذوها لأنفسهم لقب « شاه » كما حدث فى دولة خوارزم . وأكثر من ذلك ، عمل هؤلاء على أن يحيطوا أنفسهم بأنواع من الأبهة والعظمة .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩ .
ويلاحظ أن « أتابك » مكون من مقطعين ، « بك » ومعناه أمير و « أتا » ومعناه أب .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٤٣ .
ويذكر ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ أن « الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك » .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .

ولم يكن هناك من خوف على الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامى عامة من نظام الأتابكة ، مادام سلاطين السلاجقة من القوة بحيث يستطيعون فرض سيطرتهم ونفوذهم على هؤلاء الحكام ومادام فى الدولة جيش واحد قوى تسيطر عليه قوة واحدة . ولكن الخوف كل الخوف أن يضعف سلاطين السلاجقة فتضعف دولتهم وينفرد كل حاكم من هؤلاء الحكام بحكم ما فى يده من البلاد . وقد حدث فعلا أن نشأت الحروب الأهلية عقب وفاة ملكشاه ، بين أبنائه وأحفاده كما رأينا ، فكانت النتيجة أن استقل كل أمير بما فى يده ، سواء أكان ما يملكه مقاطعة بأسرها أم مدينة صغيرة ، بل لقد تسابق الأتابكة إلى توسيع رقعة ما كان بيدهم من البلاد ، كل على حساب جاره ؛ لذلك نشأ الصراع بين هؤلاء الحكام فى نفس الوقت الذى قام فيه الصراع بين أفراد البيت السلجوقى . وقد انتهزت القبائل التركية هذه الفرصة وأخذت تغير على سهول آسيا الغربية[(١)] .

بدأت فترة الانحلال عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) كما رأينا ، واستمر السلاجقة يصارعون بعضهم بعضاً ويصارعون القوى المعادية لهم ، من طائفة الإسماعيلية ومن خلفاء الدولة العباسية الذين أرادوا أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان سلبهم السلاجقة إياه ، وكان السلطان مسعود آخر من استطاع أن يدفع عدوان الخلفاء العباسيين ، فلما توفى سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، انتهى ما كان للبيت السلجوقى فى العراق من قوة[(٢)] ، إذ استطاع هذا السلطان أن يخضع الخلافة لإرادته ويردها لمشيئته فى عهد كل من الخليفتين المسترشد والراشد ، فلما مات فى عهد المقتفى ، بدأت الخلافة تنتعش على حساب السلاجقة الذين أخذ نجمهم فى الأفول ،

---

(١) Dubeux : La Parse, p. 347.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٣ ، والمقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٨ .

وانقسمت دولتهم إلى الدويلات الأتابكية[١] حتى إذا ما حل زمن غزو المغول لأقاليم آسيا الغربية ، كانت أقاليم فارس والعراق مفككة الأوصال تتنازعها عوامل الانقسام والانحلال[٢] .

وإذا كان هدفنا أن نصور ما أصاب الشرق الإسلامى قبيل غزوات المغول من ضعف وانحلال ، فلابد من أن نتكلم فى إيجاز عن دول الأتابكة ، ومنها نستطيع أن نتصور إلى أى حد واجه المغول عالماً مفككاً منحلا . فدولة السلاجقة التى عرفت بتماسكها وامتداد رقعة أملاكها ، تفككت تدريجياً وانقسمت إلى أقسام متعادية متنافرة بعد وفاة ملكشاه ، وكلما زاد ضعف السلاجقة ، قوى الانقسام فى قلب الدولة . على أن القسم الشرقى الذى كان خاضعاً للسلطان سنجر ظل موحد الكلمة بسبب عظم شوكة هذا السلطان ، ومع ذلك فقد تجمعت ضده القوى المختلفة ، كدولة الخِطا[٣] التى كانت ترمى إلى توسيع أملاكها على حساب القوى الإسلامية المجاورة ، والدولةِ الخوارزمية الناشئة التى كانت متعطشة إلى توسيع نفوذها ، هذا بالإضافة إلى أن السلاجقة كانوا يعانون كثيراً من وراء طائفة الإسماعيلية . وقد تجمعت هذه العوامل فأتت على هذا الجزء من الدولة السلجوقية أيضاً . ونجد أن آسيا الصغرى ، حيث استقر سلاجقة الروم ، ظلت متماسكة حتى سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ، عندما بدأ الأتراك العثمانيون فى الظهور[٤] .

وهنا لابد من أن نقف قليلا لنتكلم فى إيجاز عن هذه المقاطعات المعروفة بدول الأتابكة ، ولنرى كيف وصل الشرق الإسلامى إلى درجة من الانحلال لم يسبق أن عرفها المسلمون .

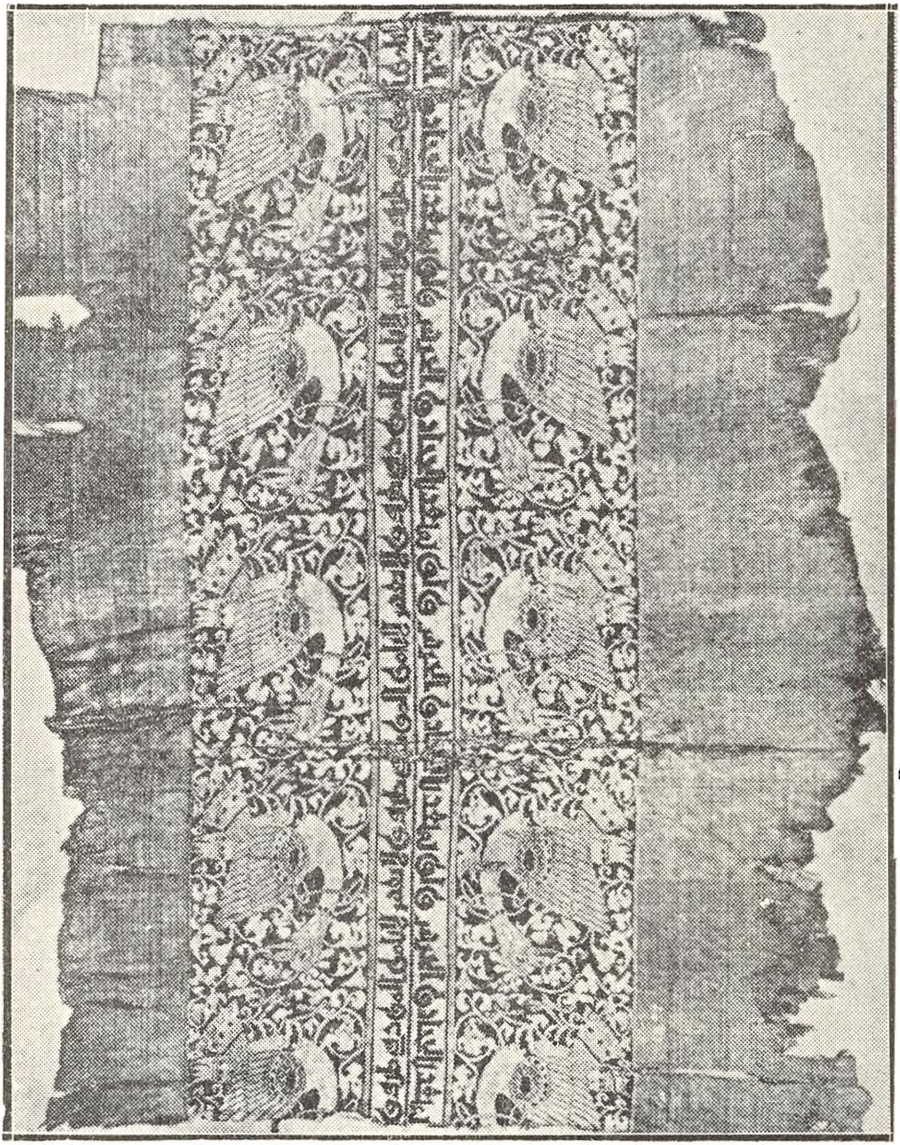
---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٠٢ .

(٢) Grenard : Gengis-Khan, p. 99.

(٣) راجع ما كتبناه باختصار عن دولة الخطا فى ص ٤٦ — ٤٧

(٤) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 152.



قطعة نسيج من الحرير ترجع إلى العصر السلجوقى

(عن كتاب الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى للدكتور زكى محمد حسن)

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة [١] ترينا كيف تجزأ الشرق الإسلامى بين هؤلاء الأتابكة ، فى الوقت الذى قامت فيه الإمارات الصليبية فى بلاد الشام عقب الحرب الصليبية الأولى ، كما نستطيع أن نتبين كيف انكمشت أملاك الخلفاء العباسيين وأصبحت مقصورة على العراق العربى وخوزستان ، ومع ذلك فقد وصلت الخلافة العباسية إلى حالة شديدة من الضعف كما رأينا .

أتابكية دمشق : [٢] ٤٩٧ — ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ — ١١٥٤م

تنتسب هذه الأتابكية إلى طغتكين ، أحد قواد الجيش السلجوقى ، وكان فى نفس الوقت مملوكا للسلطان تتش بن ألب أرسلان الذى كان والياً على دمشق عند ما توفى أخوه ملكشاه [٣] ، وكان يطمع فى السلطنة بعد وفاته ، بل إنه استطاع إلى حين أن يمد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ويقيم الخطبة لنفسه فى بغداد [٤] . وقد حدث أن قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥م) فى أثناء صراعه مع بركياروق وسار ابنه دقاق إلى دمشق وانفرد بحكمها ، فاتخذ من طغتكين أتابكا له «وحكمه فى بلاده» [٥] .

وقد استمرت هذه الأتابكية تحت نفوذ أسرة طغتكين إلى أن آل حكمها إلى أسرة زنكى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤ م) حينما استولى عليها نور الدين

---

(١) خريطة الشرق الإسلامى بعد عصر ملكشاه .

(٢) تسمى هذه الأتابكية أيضا بالدولة البورية نسبة إلى بورى بن طغتكين . انظر الجدول رقم (٩) فى آخر الكتاب .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٩٠ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٥) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ١٠٣ . انظر أيضا

Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, p. 225.
Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 161.

محمود ليقوى بها نفوذه ضد الصليبيين [١] . ثم انتقلت إلى أيدى الأيوبيين فوليها الأفضل فى حياة أبيه صلاح الدين الأيوبى ثم انتقل حكمها إلى العادل أخى صلاح الدين حين أخذ على عاتقه توحيد الدولة الأيوبية وإنقاذها من الانقسام الذى حل بها عقب وفاة صلاح الدين كما سنرى [٢] .

* * *

أتابكية الموصل [٣] : ٥١٦ — ٦٦٠ هـ = ١١٢٢ — ١٢٦٢م

كانت أتابكية الموصل أهم دول الأتابكة جميعا ، نظراً لاتساع المسرح الجغرافى الذى كانت تشغله فى شمال بلاد ما بين النهرين وفى بلاد الشـام ، وذلك قبل أن تنقسم بدورها إلى إمارات متعادية متنافرة ، هذا فضلا عن عظم الدور الذى لعبـــه عماد الدين زنكى وأبناؤه من بعـده فى حرب الصليبيين .

وتنتسب هذه الأتابكية إلى عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، وكان آقسنقر مملوكا تركيا من مماليك السلطان ملـكشاه ، تربى معه منذ صغره ، فلما تولى ملـكشاه السلطنة كان له من المنزلة ما كان لنظام الملك حتى أنه سماه « قسيم الدولة » ، وأقطعه حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية ، هذا بالإضافة إلى مدينة تكريت التى ضمها إلى ممتلكاته بعد وفاة ملـكشاه [٤] . وقد بقيت

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٨٨ — ١٩١ .

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 213-215.

(٣) تسمى هذه الأتابكية أيضا بدولة « بنو زنكى » . وقد حدد ستانلى لينپول S. Lane-Poole فى كتابه The Mohammadan Dynasties سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) بداية الحـكم أسرة زنكى ، وربما استند فى ذلك إلى أن عماد الدين زنكى قد تولى فى هذه السنة حكم بعض البلاد ومن بينها الموصل والجزيرة ونصيبين ، ولـكننا نتفق مع زامبور Zambour فيما ذهب إليه من اعتبار سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، بداية حكم هذه الأسرة ، ففى هذه السنة تولى عماد الدين زنكى حكم مدينة واسط . انظر لينپول ، ص ١٦٢ — ١٦٣ . وزامبور ، ص ٢٢٦ . وانظر أيضا الجدول رقم (١٠) فى آخر الـكتاب .

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١١ — ١٨ .

هذه الأملاك معه إلى أن قتل سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) .

وقد ذكرنا أن تتش بن ألب أرسلان طمع فى السلطنة بعد وفاة أخيه ملكشاه ، وقلنا إنه أخضع البلاد التى كانت بيد آقسنقر الذى انضم إلى بركياروق ، ثم حدث أن قتل تتش آقسنقر وضم بلاده إليه وظلت هذه الأملاك بيده إلى أن قتل تتش بدوره سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . وقد استمرت البلاد الشامية بعد ذلك ، وكذا الموصل ، مسرحا لحروب كثيرة بين صغار الأمراء وموضعا لدسائس البيت السلجوقى فى بغداد .

وكان عماد الدين زنكى عندما قتل أبوه فى العاشرة من عمره يتقلب بين زعماء البيت السلجوقى من أصدقاء أبيه (١) واستطاع أن يكتسب صداقة سلاطين السلاجقة بفضل ما أوتى من شجاعة جعلته يتنقل فى حكم البلاد المختلفة . ففى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ولى مدينة واسط (٢) ، وفى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م) ، أضيفت إليه مدينة البصرة (٣) فتولى حمايتها من دسائس العرب ومن عسكر الخليفة .

وقد بدأ نجم عماد الدين زنكى يلمع سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ، عندما تولى الموصل والجزيرة ونصيبين ، بعد أن استفحل أمر الصليبيين فى بلاد الشام ، حتى أنه لم يبق فى أيدى المسلمين سوى حلب وحمص وحماه ودمشق ، فتطلعت الأبصار إلى عماد الدين لينقذ ما يمكنه إنقاذه من الأراضى الإسلامية (٤) . وقد استطاع أن يستولى على حلب فى السنة التالية وأن ينقذها من أيدى الصليبيين الذين كانوا يهددونها باستمرار (٥) ، كما استولى على حماه بعد ذلك . وقد استمرت الحروب بين عماد الدين زنكى وبين الصليبيين إلى أن قتل سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) .

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٣٠ — ٣٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٩ — ٦٥ .

(٥) Barker : The Crusades, p. 34.

وكان من سياسة عماد الدين زنكى أن يؤلب أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقى ليشغله عن الالتفات إليه فيستطيع بذلك أن يوطد نفوذه فى بلاد الموصل من جهة ، ويوسع بلاده على حساب العناصر الإسلامية من جهة أخرى ، كما يستطيع محاربة الصليبيين من جهة ثالثة . وبهذه السياسة المثلثة الأطراف استطاع أن يستولى على الرها سنة ٥٢٩ هـ (١١٤٤ م) من أيدى الصليبيين ، وكان استيلاؤه عليها نصراً كبيراً للمسلمين . ومما يدل على عظم أهمية هذه المدينة فى نظر الصليبيين ، أنهم اعتبروا ضياعها من أيديهم بداية لنهاية النفوذ الصليبي فى بلاد الشام أو كما يقول باركر Barker بداية النهاية The begining of the end [١] .

ونلاحظ أن عماد الدين زنكى حاول أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق ، ولكنه كان لا يلبث أن يرتد عنها نظراً لمساعدة الصليبيين لأتابكة هذه المدينة [٢] . ثم إنهم كانوا يدركون أن استيلاءه عليها معناه تهديد كيانهم فى بلاد الشام ، وذلك لمتانة موقعها الحربى الذى يمكن استخدامه ضد الصليبيين ، فضلا عن وقوعها على الطريق التجارى بين البلاد الفراتية ومصر . وأصبحت دمشق تشغل بال زنكى وأبنائه ، كما كانت تشغل أصحاب مملكة بيت المقدس ، واستمر الحال على هذا النحو إلى أن تمكن نور الدين محمود فيما بعد من أن يستولى عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وبذلك فتح الطريق أمامه إلى مصر .

قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما تقدم ، وترك من بعده سيف الدين غازى الذى تولى على القسم الشرقى من أملاك أبيه واتخذ من مدينة الموصل حاضرة له ، ونور الدين محمود الذى تولى على القسم الغربى واتخذ من مدينة حلب حاضرة له ، كما ترك عماد الدين زنكى ولداً

---

(١) Barker : The Crusades, p. 51.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٣ .

ثالثاً يدعى قطب الدين مودود . وقد اجتمعت كلمة نور الدين محمود وسيف الدين غازى على محاربة الصليبيين ، غير أنه حدث أن توفى سيف الدين غازى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) تاركا ابناً صغيراً لم يلبث أن توفى أيضاً ، فتولى الموصل قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى (١) . وقد استمر الحال على هذا النحو إلى أن قبل حكام هذه الأتابكية من سلالة عماد الدين زنكى الخضوع لصلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، بينما كان يعمل على توحيد القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى لتوجيهها ضد الصليبيين (٢) .

وقد زالت إمارة الموصل بعد أن اجتاحها المغول ، إذ لم يتردد بدر الدين لؤلؤ فى تسليمها إلى هولاكو حين طلب إليه الخضوع (٣) .

* * *

أتابكية حلب (٤) : ٥٤١ — ٥٧٩ هـ = ١١٤٦ — ١١٨٣ م

انقسمت أتابكية الموصل التى عرفنا حدودها فى عهد عماد الدين زنكى إلى أتابكيات صغيرة ، بين أبنائه وأحفاده ومماليكه ، وتنازع هؤلاء السلطة فيما بينهم ، وأدى هذا إلى إضعاف شأن المسلمين أمام الصليبيين بوجه خاص . رغم محاولة ابنه نور الدين محمود جمع كلمتهم من جديد . وهكذا نشأت على أنقاض أتابكية الموصل الكبيرة عدة أتابكيات صغيرة فى حلب وسنجار والجزيرة . وقد آثرنا أن نتكلم عن كل منها فى شىء من الإيجاز .

ذكرنا أنه لما قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) ، تولى ابنه سيف الدين غازى حكم مدينة الموصل ، وتولى ابنه الثانى نور الدين محمود مدينة حلب (٥) . وكان من سياسة نور الدين أن يوحد البلاد الشامية تحت

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٦٥ .

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 206.

(٣) Rashid-Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 321.

(٤) انظر الجدول رقم (١١) .

(٥) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٥٧ — ١٥٩ .

سلطانه ويوجهها ضد الصليبيين . وقد حاول الصليبيون استعادة الرها ، منتهزين فرصة مقتل عماد الدين زنكى ، ولكن نور الدين تصدى لهم وصدهم عنها [١] .

ومما هو جدير بالذكر أن استيلاء عماد الدين زنكى على الرها وبقاءها فى أيدى المسلمين ، كان سبباً فى مجيء الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثانية على بلاد الشام ، وكان هدفها الأول استخلاص الرها من أيدى المسلمين . وقد وصلت هذه الحملة فى عهد نور الدين محمود ، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصلى واتجهوا إلى دمشق ، وكان هذا خطأ سياسياً كبيراً وقع فيه الصليبيون ، إذا كانت دمشق الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين[٢] .

وقد فشلت الحملة الصليبية الثانية ، ووجد نور الدين نفسه فيما بعد مضطراً إلى الاستيلاء على دمشق ليتحصن بها ضد الصليبيين ، وقد تم له ما أراد سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) كما أنه استطاع أن يستولى على بعض القلاع الصليبية الأخرى [٣] ، بل مد نفوذه على مصر بمساعدة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى ، وقد أخذ الأخير يعمل لنفسه منذ أن استتب له الأمر فى مصر ، دون أن يهتم بسيده نور الدين ، واستطاع صلاح الدين بذلك أن يكون أكبر قوة إسلامية فى الشرق وخاصة بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣م) الذى ترك من بعده ابناً صغيراً يدعى الصالح إسماعيل ، لم يزد عمره على إحدى عشرة سنة [٤] .

اتجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقاذ هذا الأمير الصغير من أيدى أفراد حاشيته الذين تحالفوا مع ريمند Raymond صاحب طرابلس ، ولكن صلاح الدين رفع الحصار عن هذه المدينة حين سارع ريمند هذا إلى مساعدة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) Barker : The Crusades, p. 54.

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٨٨ — ١٩١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٢ .

حليفه أمير حلب . وفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) ، سار سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب ، والتقت القوتان المتحالفتان بصلاح الدين عند موضع يسمى قرون حماه وهناك انتصر عليهم صلاح الدين . وفى السنة التالية انتصر صلاح الدين على سيف غازى نفسه ، وبذلك خضعت بلاد ما بين النهرين لسيادته ، وأعترف له أمير حلب بالسيادة على كل البلاد التى تمتد من مصر إلى نهر الفرات [١] .

وفى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، توفى الصالح إسماعيل ، وكان قد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عمه عز الدين مسعود أمير الموصل ، فأصبح هذا أميراً على حلب والموصل وهما ولايتان متباعدتان . وقد عرض عماد الدين صاحب سنجار على عز الدين هذا أن يبادله ، أى أن يأخذ عماد الدين حلب وعز الدين سنجار ، وبذلك تصبح أملاك عز الدين متقاربة ، وقدتم هذا التبادل فعلا . وكان عماد الدين من القائلين بوجوب محاربة صلاح الدين والحد من سلطانه ، فسار صلاح الدين إلى مدينة حلب سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) حيث سلمها إليه عماد الدين مقابل إعادته إلى ولايته الأصلية سنجار [٢] ، وبذلك آلت هذه الولاية إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الظاهر من بعده [٣] ، واستمرت فى أيدى الأيوبيين حتى أستولى عليها هولاكو وفر الملك الناصر صاحب حلب إلى الكرك ، حيث تحصن ضد المغول [٤] .

* * *

أتابكية سنجار [٥] : ٥٦٦ — ٦١٧ هـ = ١١٧٠ — ١٢٢٠ م .

أسس هذه الأتابكية عمادالدين زنكى (الثانى) بن قطب الدين مودود

---

(١) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 199—200.

(٢) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٣٣١ — ٣٣٤ ، الكامل ، ج ١١ ص ٢٢٤ .

(٣) Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 213.

(٤) Rashid-Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 341

(٥) انظر الجدول رقم (١٢) .

صاحب الموصل الذى كان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكى ، ثم عدل عن وصيته إلى ابنه الأصغر سيف الدين غازى بإيعاز من أحد خواصه ويدعى فخر الدين عبد المسيح ، الذى كان يكره عماد الدين لمسايرته عمه نور الدين محمود صاحب حلب ولأن عماد الدين كان يكره عبد المسيح هذا لاستبداده بأمور الدولة(١). فلما توفى قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)(٢) وعلم نور الدين محمود باستبداد فخر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال : « أنا أولى بتدبير أولاد أخى وملكهم » ، ثم سار إلى الموصل واستولى فى طريقه على مدينة سنجار . ولما حاصر نور الدين محمود الموصل ، أسرع فخر الدين عبد المسيح إلى تسليم المدينة ، ثم أمر نور الدين محمود ابن أخيه سيف الدين غازى على الموصل(٣) ، كما منح سنجار وما جاورها من البلاد التابعة لها لعماد الدين زنكى بن قطب الدين سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م)(٤) .

وقد نتج عن هذا التقسيم قيام الخلاف بين الأخوين منذ البداية ، لتولى الأخ الأصغر مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى الأخ الأكبر إمارة سنجار وهى ولا شك تصغرها . وعلى هذا الأساس لم يكن من المعقول أن يقبل الأخ الأكبر هذا الوضع الشاذ(٥) . وقد حدث سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) أن استنجد الصالح إسماعيل أمير حلب بسيف الدين غازى صاحب الموصل ضد صلاح الدين الأيوبى ، فطلب سيف الدين صاحب الموصل إلى أخيه عماد الدين صاحب سنجار أن يمده بالرجال ليسير بهم إلى بلاد الشام ، فرفض أن يجيبه إلى طلبه ، وكان ذلك بإيعاز من صلاح الدين الأيوبى الذى أطمعه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ .

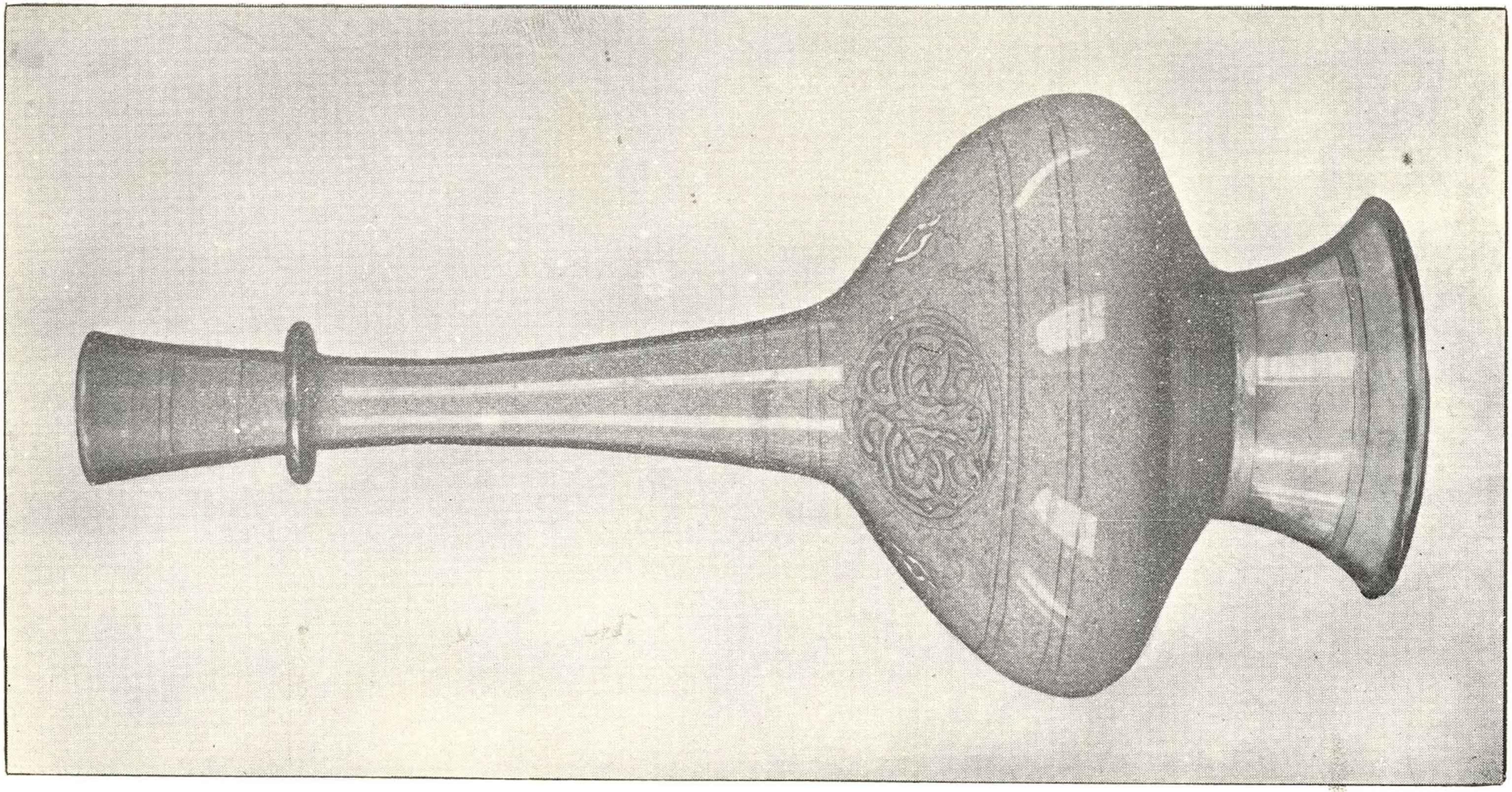
(٢) ذكر زامبور Zambour فى كتابه ص٢٢٦ ، أن قطب الدين مودود توفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) وهذا قول مردود إذ الحقيقة أنه توفى فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩م). انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٣ .

لوحة ١١



قنينة من الزجاج المموه بالمينا عليها كتابة تاريخية باسم الملك الناصر يوسف صلاح الدين الصغير الذى حكم حلب ودمشق وتوفى سنة ٦٥٨ ﻫ (١٢٦٠ م) ، ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة .

(عن كتاب Wiset : Lampe et Bouteilles en verre Emaillé)

فى الملك بحجة أنه يكبر أخاه سيف الدين . وعلى هذا النحو نشأ بين هذين الأخوين خلاف كبير انتهى بحصار سنجار . على أن انتصار صلاح الدين فى بلاد الشام قد أدى إلى رفع الحصار عنها ، إذ خاف سيف الدين أن يسرع صلاح الدين الأيوبى لنجدة عماد الدين حليفه بالأمس القريب[١] .

وقد استمرت أسرة زنكى تحكم هذه الإمارة إلى أن استولى عليها الأيوبيون فى عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وقد خرب المغول معظم هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م)[٢] .

* * *

أتابكية الجزيرة :[٣] ٥٧٦ — ٦٤٨ هـ = (١١٨٠ — ١٢٥٠ م) .

كان سيف الدين غازى بن مودود يحكم إمارة الموصل كما رأينا ، فلما حضرته الوفاة سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، أراد أن يوصى بالملك من بعده لابنه معز الدين سنجر شاه ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، غير أن أمراء دولته أشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما اتصف به من شجاعة ورجاحة عقل وهما أمران ضروريان فيمن يتولى الحكم فى ذلك الوقت بسبب استفحال شأن صلاح الدين فى بلاد الشام فنزل عند هذا الرأى وولى أخاه حكم الموصل من بعده ، وأعطى مدينة الجزيرة وقلاعها لابنه سنجر شاه[٤]، وعلى هذا الأساس نشأت هناك أتابكية صغيرة مستقلة .

وكان سنجر شاه فى حكمه قبيح السيرة ، سكيرا ، محبا لمجالس النساء والطرب ، وكان ظالما لرعيته ، يعمل السيف فى رقاب الظالم والمظلوم على السواء ، ويستحل الأموال ، ويعاقب بقطع الألسنة والآذان والأنوف وحلق اللحى ، وبلغ من تعسفه أنه أبعد أبناءه عن قصره . وكان من نتيجة ذلك كله أن قتله

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٣٢ .
(٣) انظر الجدول رقم (١٣) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ ج ١١ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

أحد أبنائه سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م)، وهو غارق فى أحد مجالس الخمر والنساء وتولى بعده ابنه معز الدين محمود .

ومما هو جدير بالذكر أن أمراء الجزيرة قبلوا الخضوع لصلاح الدين مع باقى أمراء بلاد مابين النهرين ، واستخدم صلاح الدين أمراء هذه البلاد الشمالية وهى الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وغيرها فى حرب الصليبيين [١] . وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده ، حتى غزاها المغول .

* * *

أتابكية إربل : ٥٣٩ — ٦٣٠ هـ = ١١٤٤ — ١٢٣٢ م .

أسس هذه الأتابكية زين الدين على بن بكتكين ، أحد مماليك عماد الدين زنكى، فقد عينه عماد الدين حاكما على مدينة الموصل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م)[٢] وفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، ضم إلى سلطانه سنجار وحران وتكريت وإربل وغيرها [٣] . غير أنه سرعان ما نزل عن معظم أملاكه لسيده قطب الدين مودود ، واقتصرت أملاكه على إربل وحدها ، فى أيامه وأيام أبنائه من بعده ، حتى خضعت هذه البلاد لخلفاء الدولة العباسية ، ثم إلى المغول فى أثناء توغلهم فى أقاليم آسيا الغربية .

* * *

أتابكية ديار بكر : [٤] ٤٩٥ — ٨١١ هـ = ١١٠١ — ١٤٠٨ م .

كان أرتق بن أكسب ، مؤسس هذه الأتابكية ، قائداً من قواد الدولة

---

(١) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

(٢) يلاحظ أن زين الدين على بن بكتكين كان أتابكا لقطب الدين مودود .

(٣) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 165.

(٤) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية ، نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب . انظر ما جاء عن هذه الأتابكية فى كتابى زامبور Zambour ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، وستانلى لينبول فى كتابه The Mohammadan Dynasties ، ص ١٦٦ — ١٦٩ .

السلجوقية . وقد شملت هذه الأتابكية ماردين وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا . وقد خضعت معظم مدن هذه الأتابكية للدولة الأيوبية فيما بعد ، على أن وجودها فى هذا الحيز الجغرافى ، كان من العوامل التى أضعفت وحدة المسلمين بسبب كثرة ما حدث بشأنها من منازعات . ثم غزا المغول غالبية مدن هذه الأتابكية سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) غزواً خاطفاً بينما كانوا يعيثون فى أقاليم الدولة الإسلامية فساداً ، باحثين عن جلال الدين منكُبرتى آخر سلاطين الدولة الخوارزمية [١] .

* * *

أتابكية أرمينية [٢] : ٤٩٣ — ٦٠٤ هـ = ١١٠٠ — ١٢٠٧ م .

أسس هذه الأتابكية سقمان القطبى ، الذى كان مملوكا لقطب الدين إسماعيل الحاكم السلجوقى فى مدينة مرند Marand ، إحدى مدن أذربيجان . وقد استولى سقمان على مدينة خلاط سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) [٣] واتخذ منها حاضرة لملكه ، وكانت هذه المدينة هدفاً لأطماع الطامعين من الأمراء المجاورين ، إذ كان كل يريد أن يقوى نفسه بالاستيلاء عليها إلى أن آلت فى النهاية إلى الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل أيوب سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وأثار بذلك مخاوف الأمراء المجاورين ومنهم القبائل الكردية فى شمال العراق [٤] .

وقد ظلت هذه المدينة وأعمالها فى أيدى الأيوبيين حتى استولى عليها

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٢ . ويلاحظ أن سلالة هذه الأسرة ظلت تحكم فى مدينة ماردين ، إحدى مدن هذه الأتابكية ، فى ظل الحكم المغولى .

(٢) انظر الجدول رقم (١٤)

(٣) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 170.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

الخوارزميون سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) (١) ثم دانت بعد ذلك للمغول.

* * *

أتابكية أذربيجان (٢): ٥٣١ — ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ — ١٢٢٥ م

أسس هذه الأتابكية إيلدكز Ildigiz ، أحد أرقاء السلطان مسعود السلجوقى ، وقد اشتراه من بلاد القفجاق (٣). فاشتغل أول أمره فى مطبخ السلطان مسعود ، غير أنه أخذ يترقى فى وظائف البلاط (٤). ثم ولاه السلطان مسعود حكم إقليم أران (أرانية) ، فى شمال أذربيجان . وقد أخذ إيلدكز يوسع نفوذه بعد ذلك فاستولى على أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وأصفهان والرى كما وسع بلاده حتى امتدت من باب تفليس إلى مكران (٥). وقد ظل الحال على هذا النحو حتى توفى إيلدكز بمدينة همذان سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) فخلفه ابنه محمد (٦) ، غير أن هذه البلاد الشاسعة انكمشت إلى أذربيجان وحدها فى عهد الأتابك أبى بكر بن محمد (+٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م) الذى اتخذ مدينة تبريز حاضرة له ، فقد ابتلعت الدولة الخوارزمية هذه البلاد بعد أن اتسعت أملاكها على حساب السلاجقة والخلافة معا . وقد استمرت تلك البلاد تحت حكم هذه الأسرة إلى أن قضى عليها جلال الدين منكبرتى (٧) ، الذى استولى عليها من أوزبك بن البهلوان آخر أمرائها سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) ، وتزوج من أرملته ابنة طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق (٨) ، ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ٦٢٨ هـ

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر الجدول رقم (١٥) .

(٣) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 171

(٤) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 231.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٧٤.

(٦) المرجع نفسه، ج ١١ ص ١٧٤ .

(٧) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 232.

(٨) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(١٢٣١ م) [1]. ويظهر أن بعد أذربيجان ومناعتها جعل هولاكو يتخذمنها فيما بعد مستودعاً لأسلابه ونفائسه التى استولى عليها من البلاد الإسلامية، فجمع هناك كل مااستولى عليه من بغداد ومن مملكة السلاجقة الروم وجورجيا وأرمينية ولورستان وكردستان [٢].

* * *

أتابكية لورستان [٣] : ٥٤٣ — ٨٢٧ هـ = ١١٤٨ — ١٤٢٣ م

نشأت هذه الأتابكية فى إقليم جبلى، تسكنه منذ زمن طويل قبائل بربرية ليس من السهل إخضاعها. وقد أسس هذه الأتابكية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) رجل يدعى أبو طاهر بن محمد، وكان أحد قواد أتابكية فارس. ومما هو جـــدير بالملاحظة أن أسرة هذا الأتابك قد دخلت تحت حكم دولة ايلخانات المغول فىفارس بعد تأسيسها. وقد استمرت فى حكم إقليم لورستان حتى سقطت على يد ابراهيم بن شاه رخ.

* * *

أتابكية فارس [٤] : ٥٤٣ — ٦٨٦ هـ = ١١٤٨ — ١٢٨٧ م

تنتسب هذهالأتابكية إلىسلغر، قائد إحدىقبائل التركمانالتى هاجرتإلى خراسانوانضمت إلى طغرلبك، فعينه فىبلاطه. وقد استولىأحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)، حيث

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٢٣٤.

(٢) Rashid - Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 317.

(٣) تسمى هذه الأتابكية أيضا بالدولة الهزارسبية نسبـة إلى نصرة الدين هزارسب، أحد أفراد هذه الأسرة. راجع تاريخ هذه الأسرة فى كتابى زامبور Zambour، ص٢٣٤ — ٢٣٥. وستانلىلينبول، The M. Dynasties، ص ١٧٤ — ١٧٥.

(٤) انظر الجدول رقم (١٦). ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأتابكية تعرف أيضا بالدولة السلغرية.

أسس دولة استمرت قرناً ونصف قرن . وقد أخذ هـذا الأتابك يعمل على توسيع رقعة بلاده ، فمد نفوذه على كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة لملكه . وقد اتسعت أملاك هذه الدولة فى عهد الأتابك سعد بن زنكى الذى استولى على أصفهان وطمع فى مد نفوذه على العراق العجمى سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وقد تصادف أن كان علاء الدين خوارزم شاه يسير فى هذه السنة لإخضاع الخلافة العباسية ، فالتقى بسعد هذا فى مدينة الرى واشتبكت جيوشهما فى موقعة انتصر فيها الخوارزميون . ومع ذلك فقد أكرم خوارزم شاه الأتابك سعد وأعاده إلى بلاده مكتفياً بأخذ جزء منها ، ومكتفياً بإقامة الخطبة له على منابر هذه البلاد (١) .

ولما توفى الأتابك سعد بن زنكى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م)(٢) ، تولى بعده ابنه أبو بكر الذى وسع رقعة بلاده فى بلاد البحرين ، كما أخضع جميع جزر الخليج الفارسى . وقد خضع هذا الأتابك لجنكيزخان عندما هاجم بلاده . ولم يقاومه ، بل أرسل إليه الهدايا الثمينـة ، فلما دخل جنكيزخان بلاده لم يعمل فيها التخريب كما حدث فى البلاد الإسلامية الأخرى . ثم خضعت هذه المقاطعة لهولاكو عندما اجتاح الأراضى الإسلامية (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ .

(٢) ذكر زامبور Zambour فى كتابه ص ٢٣٢ أن سعداً الأول بن زنكى توفى فى سنة ٦٢٨ هـ وهو فى ذلك يخالف ستانلى لينبول الذى ذكر أنه توفى سنة ٦٢٣ هـ . وإن السنة التى توفى فيها سعد كانت موضع اختلاف المؤرخين ، فذهب رشيد الدين والوصاف وصاحب روضة الصفا وحبيب السير إلى أن وفاته كانت سنة ٦٢٣ هـ . ويذهب صاحب تاريخ گزيده إلى أن وفاته كانت سنة ٦٢٨ هـ . وتؤيد الحقائق التاريخية الثابتة حدوث الوفاة سنة ٦٢٣ هـ . هذا وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٢ ص ٢٢٠) وهو فى معرض الكلام عن الحرب بين جـلال الدين منكبرتى والمغول سنة ٦٢٥ هـ ، أن الأتابك سعدا كان قد توفى قبل هذه السنة وعلى هذا الأساس فإن الوفاة لم تحدث فى سنة ٦٢٨ هـ . وإذا علمنا أن ابن الأثير كان من المعاصرين لهذه الحوادث ، أدركنا مدى اهتمامنا بالاعتماد عليه .

(٣) Rashid — Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 323.

أتابكية كرمان [١] : ٦١٩ — ٧٠٣ هـ = ١٢٢٢ — ١٣٠٣ م .

أسس هـذه الأتابكية براق حاجب ، أحد القواد فى دولة الخطا الذين دخلوا فى خـدمة علاء الدين خوارزم شاه [٢] . وقد اتخذ هذا الرجل من الفوضى التى أعقبت غزو جنكيزخان فرصـة لتأسيس دولة له فى كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) . على أن هذه البلاد ظلت خاضعـة للخوارزميين خضوعاً اسمياً فى عهد جلال الدين منكبرتى الذى كان براق حاجب نائباً له .
وقد أراد براق أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سـنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، منتهزاً فرصة الفوضى التى حلت بالشرق الإسلامى عقب الغزو المغولى وانشغال جلال الدين بحروبه الكثيرة ، بل إنه أرسل إلى المغول أسرار الدولة الخوارزمية وحثهم على محاربة الخوارزميين. فلما علم جلال الدين بذلك سار نحو براق حاجب الذى تحصن فى إحدى قلاعه ورفض مقابلته بل أرسل إليه رسالة يقول فيها :

« إننى أنا العبد والمملوك ، ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد »
« أخليتها لك ، ولو علمت أنك تبقى على لحضرت بابك ، ولكنى »
« أخاف هذا جميعه [٣] » .

وقد أدرك جلال الدين منكبرتى أن الاشتباك فى حرب معه يستلزم وقتاً طويلا ، فأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد .

وقد بقيت هـذه الأسرة فى حكم هذه البلاد ، ثم خضعت للمغول ، واستمرت تحكم إقليم كرمان فى ظل أسرة إيلخانات المغول فى فارس .

---

(١) انظر الجدول رقم (١٧) .

(٢) راجع ما كتب عن دولة الخطا فى كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للمؤلف ، ص ٤٦ — ٦٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٩ .

دولة خوارزم [١] : ٤٧٠ — ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ — ١٢٣١ م .

كانت الدولة الخوارزمية إحدى دول الأتابكة التى كان لها شأنها قبيل الغزو المغولى . وتنتسب هذه الدولة إلى « نوشتكين » التركى الذى كان يشغل وظيفة الساقى [٢] فى بلاط السلطان ملكشاه السلجوقى . ثم تدرج فى سلك الوظائف فى عهده . وكانت لابنه محمد شهرة واسعة فى العلوم والآداب ولذا عينه السلطان بركياروق بن ملكشاه حاكما على إقليم خوارزم ومنحه لقلب «شاه» .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ سلاطين هذه الدولة يكونون لأنفسهم على حساب القوى الموجودة فى ذلك الوقت ، ومن أهمها الدولة السلجوقية المتداعية ، والدولة الغورية التى كانت فى النزع الأخير ، وأخيراً على حساب دولة الخطا التى قامت على حدود الدولة الإسلامية [٣] . وقد جاهد الخوارزميون فى سبيل النهوض بدولتهم وتوسيع أملاكها منذ عهد أتسز خوارزم شاه [٤] (٥٢١ — ٥٥١ هـ = ١١٢٧ — ١١٥٦ م) الذى ظل يجاهد ضد القوى الموجودة فى ذلك الوقت . ولا سيما قوة السلاجقة فى عهد السلطان سنجر آخر سلاطينهم الأقوياء فى فارس . وقد أصبحت الدولة الخوارزمية مهيبة الجانب فى الشرق الإسلامى منذ أيام علاء الدين تكش خوارزم شاه (٥٦٨ — ٥٩٦ هـ = ١١٧٢ — ١١٩٩ م) ، إذ اتسعت أملاكها فى الشرق على حساب دولة الخطا ، كما اتسعت فى الغرب

---

(١) انظر الجدول رقم (١٨) .

(٢) راجع ما كتبناه عن وظيفة الساقى فى ص ٩٣ حاشية ٤ .

(٣) انظر ما جاء عن نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها فى كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » المؤلف ص ١٧ — ٣٠ .

(٤) يكتب هذا الاسم فى اللغتين الفارسية والتركية آتسز . و « آتسز » كلمة تركية معناها من لا اسم له . (آت = اسم ، سيز = أداة التجريد) وقد جرت العادة عند الترك أن من يموت بنوه صغارا يسمى واحدا منهم آتسز حتى يعيش ولا يهلك . انظر النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ص ١٠٩ ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب.

لوحة ١٢



قنينة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة الشام فى القرن السابع الهجرى (١٣ م)، وكانت محفوظة فى القسم الإسلامى من متاحف برلين.

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

حتى شملت العراق العجمى وخاصة بعد هزيمة طغرلبك آخر سلطان سلجوقى فى العراق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، وبذلك أصبحت الدولة الخوارزمية مسموعة الكلمة ، وأصبح الخليفة العباسى الناصر لدين الله ينظر إلى هذه الدولة بمنظار آخر يخالف منظار من سبقه من الخلفاء .

وكان أقصى اتساع بلغته الدولة الخوارزمية فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧ هـ = ١١٩٩ — ١٢١٩ م) [١] ، إذ استطاع هذا السلطان أن يبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر بعد هزيمة جيوش دولة الخطا سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، كما تمكن من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندى جنوبا بما فى ذلك إقليمى كرمان ومكران ، وأخيرا استطاع أن يستولى على البلاد الواقعة غربى نهر السند بعد الاستيلاء على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية ، سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

والأمر الذى يستحق الاهتمام فى حياة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، هو محاولته الاستيلاء على بغداد نفسها طمعاً فى أن يحتل المكانة التى كانت للبويهيين ثم السلاجقة فى هذه المدينة ، وإذا كان علاء الدين خوارزم شاه قد فشل فى تحقيق هذا الهدف ، فإنه نجح فى توطيد نفوذه فى العراق العجمى والاستيلاء على كثير من مدن هذا الإقليم [٢] .

وخلاصة القول ، فإننا نجد أن الدولة الخوارزمية قد امتدت فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه من حدود العراق العربى غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوباً . على أن الحوادث لم تمهل الدولة الخوارزمية بعد ذلك طويلا ، فسرعان ما اجتاحها المغول ، البلد تلو الآخر ، واستولوا على قلاعها واحدة بعد أخرى ، حتى أجهزوا على ذلك الملك العريض الذى

---

(١) انظر خريطة « الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها » ، فى كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » ، للمؤلف .

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٣٤ .

كونه الخوارزميون ولم يمهلهم الزمن ليجنوا ثمار ما غرسوا .

* * *

من دراسة دول الأتابكة ، نرى أن الشرق الإسلامى كان قبيل الغزو المغولى مفككا لا وحدة فيه ولا تجانس ، وأنه لم يعد يأتمر بإمرة رجل واحد. ولم يقتصر الأمر على انقسام هذا المسرح التاريخى إلى هذه الأتابكيات، بل إن هؤلاء الأتابكة كانوا فى نزاع مستمر فيما بينهم ، كل يريد أن يلتهم ما يمكنه التهامه من أملاك جيرانه إذا ما تطرقت إليها أى ناحية من نواحى الضعف ، لذلك لا نعجب إذا ما أصبح الشرق الإسلامى طعمة سائغة للمغول من الشرق ، كما أصبح هدفاً سهلا للصليبيين من الغرب .

الباب الخامس

حالة مصر والشام

مصر والشام قبل مجيء الحملة الصليبية الأولى . الحرب الصليبية الأولى وتكون الإمارات الصليبية فى بلادالشام . الحـرب الصليبية الثانية. نور الدين وجهاده ضد الصليبيين . صلاح الدين الأيوبى وجهاده ضد الصليبيين . مصر والشام فى عهد خلفاء صلاح الدين .

الباب الخامس

حالة مصر والشام

انفصلت مصر عن الدولة العباسية منذ أيام الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) ، واستطاع احمد بن طولون، بعد أن استقل بمصر ، أن يستولى على البلاد الشامية سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) . وبهذا نجد أن مصر قد استقلت بنفسها لأول مرة منذ أيام البطالمة ، بل نجد أنها حكمت سوريا لأول مرة منذ عهد الفراعنة . وقد سارت الحوادث سريعة، فزالت الدولة الطولونية ، وتلتها الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ — ٩٦٩ م) فنهج محمد بن طغج الإخشيد على منوال الطولونيين ، إذ وطد نفوذه فى مصر ، ثم مد هـذا النفوذ على سوريا ، بل واستطاع أن يوسع سلطانه حتى شمل مكة والمدينـة ، ولم يكن هناك من منافس لهذه الدولة سوى الدولة الحمدانية ، إذ استطاع سيف الدولة الحمدانى أن يستولى على حلب سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م) من الإخشيد،وتدل قصائد المتنبى دلالة واضحة على ما كان بين الحمدانيين والإخشيديين من منافسة .

وقد ورث الفاطميون أملاك أسلافهم الإخشيديين سواء أكان ذلك فى مصر ، أو فى بلاد الشـام ، أو فى مكة والمدينة ، وأصبح الفاطميون ينافسون بغداد ، بل لقد طمعوا فى السيطرة عليها . غير أن الضعف الذى أصاب الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ، نتيجة للثورات التى قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل إلى أيديهم ، وما صحب ذلك من انتشار القحط والمجاعة فى عهد هذا الخليفة ، كل هذا أدى إلى انتقال الأملاك

الحجازية والشامية من أيدى الفاطميين إلى أيدى العباسيين ، وذلك بفضل قوة السلاجقة الذين استولوا على بغداد سنة٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) كما ذكرنا، وأخذوا منـذ ذلك الوقت يوسعون أملاكهم شرقاً وغرباً . فقد حدث أن أرسل أمير مكة فى سـنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) إلى السلطان ألب أرسلان يخبره بقطع الخطبـة للخليفة المستنصر الفاطمى فى بلاده وإقامتها للخليفة العباسى القائم (١) . وفى السنة التالية تمكن العباسيون من فرض سلطانهم على حلب وإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان ألب أرسلان(٢) . وفى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) ، تمكن السلاجقة من الاستيلاء على دمشق فى عهد الخليفة المقتدى ، وأبطلت عبارة الفاطميين المشهورة وهى «حى على خير العمل » من الأذان(٣) . وهكذا أدى ضعف الفاطميين وما قابله من قوة الدولة السلجوقية إلى انتقال البلاد الشامية إلى أيدى السلاجقة.

ومما هو جدير بالذكر ، أن السلطان ملكشاه أقطع البلاد الشامية أخاه تتش فى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، واستطاع هذا أن يوطد نفوذه هناك ، ثم استطاع أن يركز سلطانه فى حلب ودمشق فى السنة التالية(٤) ، وكانت الدولة الفاطمية إذ ذاك فى طريقها إلى الانحلال . وقد رأينا فيما سبق كيف أخذت الدولة السلجوقية نفسها فى الانحلال بعد وفاة السلطان ملكشاه ، ونضيف هنا أن صدى هذا الانحلال قد وصل إلى بلاد الشام حينما قام النزاع بين تتش وأولاد أخيه ملكشاه طمعا منه فى السيطرة على ممتلكات الدولة السلجوقية . وكان من المنتظر أن يعود الهدوء إلى البلاد الشامية بعد مقتل تتش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، ولكن نشأ صراع جديد بين ابنيه رضوان ودقاق ، واستولى أولها على حلب وخطب للخليفة المستعلى الفاطمى فى بلاده

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٥ .

بغية اجتذاب المصريين إليه فى نزاعه ضد أخيه دقاق الذى حكم فى دمشق[١].

وفى وسط هذا الاضطراب الذى انتشر فى قلب الدولة السلجوقية، وشمل بلاد الشام، وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة الفاطمية آخذة فى التدهور، ظهر عدو أنكى وأشد وهو الخطر الصليبى، فقد استجاب البابا لاستغاثة الإمبراطور الكسيوس كومنين (٤٧٤ — ٥١٢ هـ = ١٠٨١ — ١١١٨م) الذى استغاث به لإنقاذه من السلاجقة المسلمين، الذين أصبحوا يهددون القسطنطينية نفسها منذ أن أوقعوا الهزيمة بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع Romanus IV (٤٦٠—٤٦٤ هـ = ١٠٦٧ — ١٠٧١م)، بل وأسروه فى موقعة ملازكرد سنة ٤٦٤هـ (١٠٧١ م)[٢]. وفى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦م) سارت الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، وقام الصليبيون بأعمالهم الحربية ضد المسلمين التى انتهت باستيلائهم على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩م)[٣]. وفى السنوات التالية استطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا وطرابلس وصيدا ثم على صور سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م)[٤]. وقد برهن البابا أوربان الثانى على أنه سياسى محنك إذ أنه اختار الوقت المناسب وهو فترة انحلال الشرق الإسلامى لتسيير حملته الصليبية على بلاد الشام. ومما يدعو إلى الأسف أن الأفضل بن بدر الجمالى تحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة، ولكنه عاد فحاربهم بعد أن تحقق من طمعهم فى مصر نفسها. على أن مدينة عسقلان قد أصبحت

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١١١ — ١١٢. انظر الجدول رقم (٦) فى آخر الكتاب. ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام، أن طغتكين مؤسس أتابكية دمشق (الدولة البورية) كان أتابكا لدقاق بن تتش. انظر زامبور Zambour، ص ٢٢٥، ولينپول The M. Dynasties ص ١٦١.

(٢) Hitti: History of the Arabs, p. 636.
ومما هو جدير بالذكر أن هذه الموقعة تكتب أيضا « منزيكرت ».

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١١٧.

(٤) المرجع نفسه، ج ١٠ ص ٢٦٣.

الحد الفاصل بين مصر وأملاك الصليبيين فى بلاد الشام[١] .

وكان من أثر الحملة الصليبية الأولى ، أن تكونت الإمارات الصليبية الأربع فى بلاد الشام ، وهى بيت المقدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرها ، كما كان من أثرها أيضا ضياع المدن الساحلية من أيدى المسلمين ، ولم يبق فى أيديهم إلا بعض المدن الداخلية ومن أهمها دمشق وحلب[٢]. وكانت المدن الساحلية هى كل ما اشتاق إليه الإيطاليون وابتغوا ، إذ استطاعوا أن يجدوا لهم فى هذه المدن أسواقا تجارية حرة[٣] .

وقد ظلت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدى الصليبيين كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الصليبيين بقلوب واهنة بسبب ما بلغه الخلفاء الفاطميون من ضعف . ولولا ظهور عماد الدين زنكى (٥١٦ — ٥٤١ هـ = ١١٢٢ — ١١٤٦ م) ، لكانت مصر من البلاد التى يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها ، إذ كان ظهور عماد الدين زنكى سببا فى اتجاه الصليبيين إليه ، دفعاً لما أصابهم وأصاب ممتلكاتهم على يديه من ضرر بليغ .

وقد ذكرنا من قبل ، كيف ظهر عماد الدين زنكى ، وكيف دانت له بلاد الموصل والجزيرة ، وكيف مد نفوذه على حلب حتى أصبح خطراً يهدد الصليبيين فى ممتلكاتهم . وكان استيلاؤه على الرها التى كانت تسيطر على الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبين البحر الأبيض سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) بمثابة ضربة قاضية أصابت الصليبيين ، وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية المعروفة بالثانية إلى بلاد الشام (٥٤٢ — ٥٤٤ هـ = ١١٤٧ — ١١٤٩ م) ، بقيادة الإمبراطور كونراد الثالث Conrad III إمبراطور ألمانيا ولويس السابع Louis VII ملك فرنسا . وقد وصلت هذه الحملة فعلا فى عهد

---

(١) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 163-165.

(٢) Barker : The Crusades, pp. 25-32.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 640.

لوحة ١٣



شمعدان من البرونز مؤرخ سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ومحفوظ بمتحف الفنون الزخرفية فى باريس وعليه زخارف من موضوعات مسيحية كمنظر ميلاد المسيح والمعمودية والختان .

(انظر كتاب فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن ، ص ٥٤٤ — ٥٤٥).

نور الدين محمود بن زنكى ، ولكن كان تغيير وجهة الحملة الصليبية الثانية ، التى أتت خصيصاً لاستخلاص الرها ، وسيرها إلى دمشق بدلا من الرها ، من أكبر الأخطاء التى ارتكبها زعماء هذه الحملة ، إذ أن دمشق كانت الحليف الوحيد للصليبيين منذ حطوا رحالهم فى بلاد الشام لأول مرة . وقد فشلت هذه الحملة وعاد زعماؤها من حيث أتيا ، ولم يكتسب الصليبيون من وراء هذه الحملة أكثر من الإساءة إلى سمعتهم فى بلاد الشام[١] .

وبعد وفاة عماد الدين زنكى ، قسمت مملكته بين ولديه ، نور الدين محمود الذى آل إليه القسم الغربى من مملكة أبيه وحاضرته حلب ، وسيف الدين غازى الذى آل إليه القسم الشرقى وحاضرته الموصل . وكان نور الدين محمود منذ ركز سلطانه على القسم الغربى من مملكة أبيه ، قد أخذ يعمل على الاستيلاء على إمارة دمشق لأهمية موقعها الحربى ، فيستطيع إذا ما تمكن من الاستيلاء عليها أن يواجه دولة الصليبيين دون أن يخشى هذه الإمارة التى كانت تؤازرهم فى كفاحهم ضد الدولة الزنكية . وقد استطاع نور الدين محمود أن يستولى على هذه المدينة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما استطاع أن يستولى على بعض القلاع التى كانت بأيدى الصليبيين[٢] . وقد أصبحت الدولة النورية منذ ذلك الوقت تهدد أملاك الصليبيين فى بلاد الشام إذ أنها بامتلاكها حلب ودمشق جعلت مملكة بيت المقدس فى موقف لا تحسد عليه[٣] .

وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت فى دور الاحتضار ، نتيجة للمجاعات والأوبئة والقحط الذى أصابها بسبب انخفاض النيل فى عهد الخليفة المستنصر ، ونتيجة لاستبداد الوزراء بالخلفاء الفاطميين . ولم يحل بين الصليبيين وبين الاستيلاء على مصر فى ذلك الوقت سوى ظهور الدولة

---

(١) Barker : The Crusades, p. 54.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٨٨ — ١٩١ .

(٣) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 174.

الزنكية وازدياد قوتها فى أيام عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، وانصراف الصليبيين إلى مواجهة عدوهم القوى فى البلاد الشامية .

وكان من سياسة نور الدين محمود أن يوحد جميع القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ، ومن بينها مصر ، ليوجهها ضد الصليبيين . ولم تخف هذه السياسة على الصليبيين طبعاً ، فاتجهت أنظارهم إلى الاستيلاء على مصر حتى يسبقوا نور الدين محمود فى تحقيق هذا الهدف . وقد أفلحوا فى الاستيلاء على عسقلان سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، وسدوا بذلك الطريق إلى مصر فى وجه نور الدين (١) . ثم حدث أن طوق نور الدين ممتلكات الصليبيين باستيلائه على دمشق فى السنة التالية كما رأينا ، فاتجهت سياسة كل من الصليبيين ونور الدين إلى منع كل منهما الآخر من الاستيلاء على مصر ، بل عمل كل من الفريقين على أن يسبق الفريق الآخر فى الاستيلاء عليها . وقد نجح نور الدين محمود فى النهاية بمساعدة أسد الدين شيركوه فى الاستيلاء على مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) ، واتخذه الخليفة الفاطمى العاضد وزيراً له (٢) ، ولكنه لم ينعم بمنصب الوزارة أكثر من شهرين وخمسة أيام(٣) ، فاختار الخليفة العاضد صلاح الدين الأيوبى فى هذا المنصب ، وقبل الخليفة العاضد أن يكون نور الدين حامياً لمصر من الصليبيين .

ومنذ آلت السلطة إلى صلاح الدين فى مصر ، أخذ يعمل على إزالة الدولة الفاطمية نهائياً ،فكان أن خطب للخليفة العباسى المستضىء سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) ، دون أن يلقى معارضة ما من المصريين . وكان الخليفة العاضد فى ذلك الوقت على فراش الموت ، وقد مات فعلا وهو يجهل أن دولته قد

---

(١) Barker : The Crusades, p. 56.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٥٣ ،

زالت نهائياً [١] ، وهكذا انتقل الحكم إلى صلاح الدين انتقالا هادئا [٢] .

وقد قسم ستانلى لينپول [٣] عهد صلاح الدين الأيوبى أقساما ثلاثة : سمى الأول منها بالدور المصرى ، والثانى بالدور السورى ، والثالث بالدور الفلسطينى .

أما عن الدور المصرى (٥٦٥ — ٥٧٠ ه = ١١٦٩ — ١١٧٤ م) ، فنلاحظ أن صلاح الدين كان يعمل فى أثنائه حسبما تمليه مصلحته الخاصة ، وبدأ بتوطيد أقدامه فى البلاد المصرية ، وذلك بالعمل على تحصينها ضد القوى المعادية ، فقضى على بقايا الفاطميين فى مصر ، وحصن نفسه ضد سيده نور الدين ، كما تحصن ضد ما يمكن أن يقوم به الصليبيون من أعمال عدائية . لذلك لا نعجب إذا رأينا صلاح الدين فى هذه الفترة يتجنب مواجهة نور الدين ويعتذر عن عدم لقائه بشتى المعاذير [٤] ، ويعمل فى الوقت نفسه على تقوية مركزه فى مصر حربياً وسياسياً . فبنى قلعة القاهرة لتكون حصنا دفاعيا ضد من تحدثه نفسه بالإغارة على مصر ، سواء أكان ذلك من ناحية نور الدين أم من ناحية الصليبيين. ولم يخف على نور الدين محمود أن صلاح الدين كان يؤسس لنفسه فى البلاد المصرية ، وأنه ما كان ليتركه يواصل هذه السياسة المضادة لسياسته لولا أنه كان فى شغل شاغل بمتاعبه الخاصة ، سواء أكان ذلك من جانب الصليبيين أو من جانب سلاجقة الروم ، أو أتابكة ما بين النهرين . وليس أدل على أن صلاح الدين كان يرنو ببصره إلى تأسيس إمبراطورية مصرية ، من أنه أرسل أخاه المعظم توران شاه لفتح السودان طمعاً فى موارد هذه البلاد. وقد وصلت جيوشه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) انظر الجداول الخاصة بالدولة الأيوبية فى كتابى زامبور Zambour ، ص ٩٧ — ١٠١ ، وستانلى لينپول The M. Dynasties ، ص ٧٧ — ٧٩ .

(٣) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 194.

(٤) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ١٢٦ .

فعلا إلى مدينة إبريم ، غير أن تقريره عن مناخ السودان ومنتجاته كان لا يشجع صلاح الدين على المضى فى مشروعه،فوجه أخاه إلى بلاد اليمن حيث أسس لنفسه حكومة مستقلة فى هذه البلاد، توارثها أعضاء البيت الأيوبى[١].

أما عن الدور الثانى المعروف بالدور السورى (٥٧٠ — ٥٨٢ ﻫ = ١١٧٤ — ١١٨٦م) ، فنلاحظ أن صلاح الدين أخذ يعمل فى أثنائه على توحيد جميع القوى الإسلامية الموجودة فى الشرق الأدنى تحت سلطانه حتى يستطيع أن يوجه هذه القوى مجتمعة ، متفقة غير متنازعة ، ضد هدفه الأساسى وهو الصليبيين . وقد أصبح صلاح الدين منذ وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ﻫ (١١٧٣م) لا ينازعه منازع فى هذا المسرح التاريخى[٢]،ولا سيما أن عمورى ملك بيت المقدس توفى أيضاً فى هذه السنة ، تاركا على عرش بيت المقدس طفلا مريضاً.وهكذا نرى أنه إذا كانت هناك من منافسة لصلاح الدين فقد كانت منافسة اطمأن لها كل الاطمئنان ، إذ أن الصالح إسماعيل ابن نور الدين الذى تركه أبوه فى حلب كان طفلا لا يخشى جانبه . غير أن هذا الطفل كان يؤازره ويساعده عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل، كما كان الصليبيون من أمراء طرابلس يشدون من أزره ، إذ لم يخف على أمير الموصل كما لم يخف على الصليبيين ما سيؤول إليـــه مصيرهم لو تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على مدينة حلب .

على أن هذه القوى المعادية لصلاح الدين لم تمنعه من متابعة سياسته التى رسمها لنفسه ، فاتجه عقب وفاة نور الدين إلى حلب بحجة إنقاذ هذا الأمير الصغير من أيدى أفراد حاشيته الذين سارعوا إلى الاتفاق مع الصليبيين . لذا فإن صلاح الدين عند ما سار إلى حلب ، سار ريمند Raymond أمير طرابلس لمساعدة حليفه الأمير الطفل ، فاضطر إلى رفع الحصار عنها .

---

(١) Lane- Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 195-197.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ١٨٠ .

وفى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ، سار سيف الدين غازى لمساعدة الصالح إسماعيل ، والتقت جيوشهما المتحالفة بقوة صلاح الدين بالقرب من مدينة حلب عند موقع يسمى « قرون حماه » فانتصر صلاح الدين وتتبع فلول المنهزمين إلى مدينة حلب التى حاصرها وقطع الخطبة للصالح إسماعيل فى البلاد التى بيده وأزال اسمه عن السكة فيها ، ثم تم الصلح بين الفريقين على أن يحتفظ كل منهما بالبلاد التى بيده[1]. وقد تم لصلاح الدين الانتصار على سيف الدين غازى فى السنة التالية ، فاستطاع بذلك أن يحد من تدخله ، كما استطاع أن يعقد محالفة بينه وبين أمير حلب ، اعترف له فيها بسيادته على ما فتحه من البلاد ، الممتدة من مصر إلى البلاد الفراتية. ثم استطاع صلاح الدين سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أن يبرم معاهدة أمدها سنتان مع كل من سلاجقة الروم وملك أرمينية الصغرى وأمراء الموصل والجزيرة وإربل وكيفا وماردين وميافارقين ، واتفق مع هؤلاء جميعا على أن يسود بينهم السلام والوئام محل القلاقل والخصام. ولما توفى الصالح إسماعيل سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)، انتظر صلاح الدين حتى انتهت المدة المتفق عليها للمهادنة ، ثم سار إلى بلاد الشام سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وأخضع كل بلاد ما بين النهرين ما عدا الموصل ، تلك المدينة التى خضعت له سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) . كما استطاع صلاح الدين أن يمد نفوذه على حلب . وهكذا أصبحت البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وبعض كردستان خاضعة لصلاح الدين الذى استطاع بعد ذلك كله أن يوجه هذه القوى الإسلامية مجتمعة إلى محاربة الصليبيين .

ننتقل بعد ذلك إلى الدور الثالث من حكم صلاح الدين وهو الذى سماه لينبول بالدور الفلسطينى (٥٨٢—٥٨٩ هـ = ١١٨٦ — ١١٩٣ م) . وفى هذا الدور توجه صلاح الدين إلى الصليبيين بكل ما أوتى من قوة ، كما سارع أمراء الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وحران ، وحتى الأكراد

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ١٩٠ .

الذين يسكنون وراء نهر دجلة إلى مد يد المساعدة له[١] ، واستطاع صلاح الدين بكل ما تجمع لديه من قوى أن ينصرف إلى الصليبيين ويلحق بهم هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) . وكان يوماً قاسياً على الصليبيين ، ذلك الذى اشتبك فيه صلاح الدين معهم ، وزاده قسوة أنه كان يوماً صائفا من أيام يوليو ، تحمل فيه الصليبيون حرارة الجو القاتلة ومرارة الجوع والعطش . وكانت هذه الموقعة بمثابة ضربة قاضية وجهت إلى الصليبيين ، إذ تمكن صلاح الدين من دخول بيت المقدس بعد ذلك فى شهر أكتوبر ، وتبع هذا الانتصار سلسلة من الانتصارات الأخرى ، حتى أنه لم يعد للصليبيين فى مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور ، كما لم يبق لهم من المدن الهامة فى الأقاليم الشمالية سوى مدينتى أنطاكية وطرابلس[٢] .

وقد أثار سقوط بيت المقدس حنق الأوربيين، إذ تحطم كبرياؤهم السياسى وشعورهم الدينى فكانت النتيجة أن قامت الحرب الصليبية المعروفة بالثالثة (٥٨٥ — ٥٨٨ هـ = ١١٨٩ — ١١٩٢ م) ، وعلى رأسها فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . وكانت دلائل الفشل قد بدت تظهر منذ بدء رحيل زعماء هذه الحملة ، فإنه فضلا عن اختلاف الطرق التى سلكها كل من هؤلاء القادة الثلاثة ، فقد غرق إمبراطور ألمانيا فى آسيا الصغرى وتفرقت جيوشه واختلف الملكان الآخران على الخطة الحربية التى يجب اتباعها . وليس أدل على ذلك من اتجاه ملك فرنسا رأساً إلى عكا ، بينما شغل ملك انجلترا نفسه بالاستيلاء على قبرص[٣] ، أضف إلى ذلك عدم انتظام وصول القوات المتحالفة إلى عكا مما أدى إلى طول مدة حصارها[٤] . وقد حاول صلاح الدين

---

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

(٢) Barker : The Crusades, p. 60.

(٣) Ibid., p 63.

(٤) استمر هذا الحصار من ٢٧ أغسطس سنة ١١٨٩م إلى ١٢ يوليو سنة ١١٩١م .

فى هذه الفترة أن يطلب المدد من الخليفة العباسى الناصر دون جدوى(١).

على أن اختلاف ملكى فرنسا وانجلترا ورحيل الأول عن البلاد الشامية إلى بلاده ،كان من الأمور التى أضعفت مركز ملك انجلترا رغم ما أحرزه من انتصار ، فاضطر إلى طلب الصلح من صلاح الدين . وقد تم عقد هذا الصلح الذى عرف بصلح الرملة سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وفيه وضع الصليبيون أيديهم على المدن الساحلية (من عكا إلى يافا) كما امتلك المسلمون الأراضى الداخلية ، وسمح للمسيحيين بالحج إلى بيت المقدس (٢) . ورحل ريتشارد بعد ذلك إلى بلاده، كما مات صلاح الدين بمدينة دمشق فى أوائل السنة التالية أى فى صفر سنة ٥٨٩ هـ (فبراير سنة ١١٩٣ م) .

كانت الدولة الأيوبية فى عهد صلاح الدين موحدة الأركان يخشاها المسلمون كما يرهبها المسيحيون ، ولكن ما أن توفى صلاح الدين حتى أصبحت هذه الدولة المتماسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والانحلال، لأسباب منها ما هو كامن فى قلب الدولة ، ومنها ما يرجع إلى عوامل خارجية . وقد اجتمعت هذه العوامل الخارجيه والداخلية على تركة صلاح الدين فأضعفتها ، وجعلتها لقمة سهلة للطامعين . أما العوامل الداخلية فكانت من ناحية الأيوبيين أنفسهم ، إذ أراد أبناؤه وأخواته أن يقتسموا هذه التركة ، وأصبح كل يريد نصيبا فيها حسب نظام الوراثة فى الشريعة الإسلامية ، على أن وريثاً واحداً من هؤلاء لم يرث عن صلاح الدين عبقريته(٣) . ومهما يكن من شىء فإنه لما مات صلاح الدين، كان ابنه الأفضل حاكما على دمشق وأواسط سوريا ، وابنه العزيز فى مصر ، وكان الظاهر يحكم فى حلب ، كما كان أبناء أخيه يحكمون حماه وحمص وبعلبك ، وأخوه

---

(١) Muir : The Caliphate, pp. 588-589.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٠ — ٤١ .

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 652.

العادل بلاد ما بين النهرين وديار بكر . على أنه بالرغم من انقسام هذه البلاد بين أفراد الأسرة الأيوبية ، فإن النزاع لم ينقطع بين هؤلاء الأخوة . ومما يدل على ذلك أن العزيز حاصر أخاه فى دمشق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، ورغم أن السلام ساد بين الأخوين بعد أن تدخل العـادل والظاهر[١] ، إلا أن النزاع لم يلبث أن قام بينهما فى العام التالى ، حيث طارد الأفضل أخاه حتى مدينة بلبيس ، ثم عقد الصلح بعد أن تدخل العادل أيضا[٢] .

رأى العادل ذلك كله ، ورأى أن هذا الانقسام لا بد أن يطوح بالدولة الأيوبية ، فعزم على توحيدها من جديد ، كما عول على تحسين حالة البلاد من الناحية المالية ولاسيما وأن صلاح الدين ترك خزانة الدولة خاوية[٣] . ولقد رأى العادل أيضا أن ذلك التقسيم الذى انقسمت إليه دولة صلاح الدين لم يكن تقسيما عادلا ، فقد استأثر البعض بأجزاء هامة ، على حين لم يترك للغالبية سوى مدينة أو ما يعادلها لكل فرد[٤] . لذلك عول على أن يوحد هذه البلاد جميعا تحت إمرة رجل واحد وأن يخضع تركة صلاح الدين لشخصية واحدة ، ولم يكن ذلك الرجل وتلك الشخصية سوى العادل نفسه .

ولما رأى العادل أن مصر هى مركز هذه الدولة ، فقد أرادها لنفسه ليتخذ منها بعد ذلك مركزا يحاول منه فرض سلطانه على سائر أجزاء الدولة الأيوبية . ولتحقيق هذه السياسة ، سار فى طريق تحف به المؤامرات والفتن والمكائد مع ما عرف عنه من مكر ودهاء ، فلم يعدم وسيلة إلا اتخذها مادامت توصله إلى مأربه . من ذلك أنه أخذ يوقع بين الأخوة ويستعين بالواحد ضد الآخر حتى اذا ما حل بهم الضعف كانت له الغلبة فى النهاية ، فاستعان بالعزيز ضد الأفضل إلى أن تمكن من طرد الأفضل من دمشق . كذلك أخذ يوقع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥١ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٥٥ — ٥٦ .

(٣) Marcel : Egypt depuis la Conquête des Arabes, p. 145.

(٤) Ibid., p. 145.

لوحة ١٤



منظر معركة لجيوش المغول فى مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يرجع إلى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ومحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس

(عن موسوعة الفن الفارسى .A Survey of Persian Art)

الفرقة بين جيوش العزيز، بل استطاع أن يصرف جيوشه عنه [١]. وهكذا كان العادل لا يعدم وسيلة فى سبيل الوصول إلى مآربه، غير أن مشاكله لم تنته تماما بوفاة العزيز سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م)، إذ لم يكد أخوه الأفضل، وهو الطريد فى بلاد ما بين النهرين، يسمع بذلك النبأ حتى أسرع إلى القاهرة حيث اتفق مع أخيه المنصور (٥٩٥ — ٥٩٦ هـ = ١١٩٨ — ١١٩٩ م) على إخضاع دمشق، وقد ظاهرهما فى ذلك الظاهر صاحب حلب ومحمد ابن شيركوه صاحب حمص لكراهيتهما للعادل [٢]. ولكن العادل استطاع أن يقضى على هذه القوات مجتمعة سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) [٣]، وفرض العادل بعد ذلك سيادته على مصر (٥٩٦ — ٦١٥ هـ = ١١٩٩ — ١٢١٨ م) إلى جانب أملاكه فى البلاد الشامية، فأصبح بذلك سيدا على معظم أملاك صلاح الدين. وقد أدى العادل للعالم الإسلامى بتوحيد هذه الأملاك أجل الخدمات، فرغم ما ارتكبه من الدسائس والمؤامرات، فإنه استطاع أن ينقذ الدولة الأيوبية من الانقسام، ولولا العادل لحل بالدولة الأيوبية ما حل بدولة السلاجقة فى أواخر أيامها، بعد أن انقسمت بين الأتابكة كما رأينا. وليس معنى ذلك أن العادل وخلفاءه [٤] كانوا يهيمنون على كل ما تركه

(١) حدث فى أثناء خروج العزيز إلى دمشق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣م)، أن فضل الأمراء الصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين) على الأسدية (نسبة إلى أسد الدين شيركوه)، لذلك أخذ العادل يوقع الوحشة بين الطائفتين حتى جعل الأسدية ينفرون من العزيز، وذلك بأن كتب إلى العزيز سراً ليبعد الأسدية عنه حتى يأمن شرهم، كما كاتب الأسدية ليتخذوا الحيطة من العزيز ويستميلهم إليه. وقد نجح العادل فى دسيسته، إذ فرق بين الأسدية وبين العزيز، فاتفقوا على مفارقته، وعقدوا النية على مكاتبة من هناك من الجند فى القاهرة يستميلونهم إليهم ويحولوا بين العزيز وبين القاهرة، إذا ما عاد إليها، ومن ثم يمكن القضاء عليه.
انظر المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ١ ص ١٢٤ — ١٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ج ١٢ ص ٦٨.

(٤) هم الكامل: ٦١٥ — ٦٣٥ هـ (١٢١٨ — ١٢٣٨م) والعادل الثانى: ٦٣٥ — ٦٣٧ هـ (١٢٣٨ — ١٢٤٠ م) والصالح أيوب: ٦٣٧ — ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ — ١٢٤٩م) والمعظم توران شاه: ٦٤٧ — ٦٤٨هـ (١٢٤٩ — ١٢٥٠م). انظر كتاب زامباور Zambour، ص ٩٧.

صلاح الدين من أملاك إذ أن الدولة ظلت منقسمة إلى سبعة أقسام رئيسية[١]، استقل بعضها استقلالا تاما عن مصر، وخضع البعض الآخر خضوعا اسميا. وكثيرا ما كان يحدث النزاع بين حكام هذه البلاد فيستعين الواحد منهم بالآخر على عدو ثالث[٢]، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على أعدائهم من الأيوبيين[٣].

وكان من أثر ذلك أن سقطت الدولة الأيوبية وولاياتها الإسلامية فى بلاد الشام سقوطا بطيئا، ولم يعد الأيوبيون يقاومون الصليبيين الذين لم يجدوا فى الشرق دولة موحدة تقف أمامهم كما حدث فى عهد صلاح الدين.

أما عن الصليبيين فى بلاد الشام فى الفترة التى أعقبت وفاة صلاح الدين، فقد كان من المنتظر أن ينتهزوا فرصة الانقسام الذى حل بالدولة الأيوبية ليستعيدوا نشاطهم القديم ويحاولوا غسل الإهانة التى لحقت بهم على يد صلاح الدين. على أن الصليبيين فى بلاد الشام لم يكونوا فى حالة تسمح لهم بانتهاز فرصة الضعف الذى أصاب الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، فقد كانوا هم أنفسهم فى حالة ضعف شديد، إذ كان هنرى شامپين

(١) هى مصر ودمشق وحلب وبلاد ما بين النهرين وحماه وحمص وبلاد العرب. وكانت دمشق منذ وفاة العادل تخضع خضوعا اسميا لمصر، وكذلك كان الحال بالنسبة لبلاد ما بين النهرين إذ كان حكامها من أبناء العادل. أما حلب وحماه وحمص وبلاد العرب فكانت مستقلة تماماً. ونلاحظ أن كل هذه البلاد، ماعدا حمص، كانت خاضعة لسلالة أيوب الخمسة وهم صلاح الدين والعادل وشاهنشاه وتوران شاه وطغتكين، أما حمص فكانت خاضعة لسلالة شيركوه أخى صلاح الدين. انظر الجدول المواجه لصفحة ٢١٢ من كتاب تاريخ مصر فى العصور الوسطى تأليف ستانلى لينپول.

(٢) من أمثلة هذا النزاع، ما حدث سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) بين الكامل صاحب مصر والأشرف صاحب دمشق. ولما مات الأخير سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) سار الكامل إلى دمشق ليبسط نفوذه عليها، فدافع عنها الصالح إسماعيل وساعده فى ذلك أمراء حلب وحمص الذين لم يكونوا من سلالة العادل.

(٣) تعهد الإمبراطور فردريك للملك الكامل فى المعاهدة التى عقدها معه سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) أن يدافع عنه ضد أعدائه الذين كان معظمهم من الأيوبيين. انظر كتاب
Hitti : History of the Arabs, p. 654.

Henry of Champagne ملك بيت المقدس رجلا ضعيفاً ، لذلك لم يجرؤ على المخاطرة بجيوشه واكتفى بحكم البلاد الساحلية ، كما كان أمير أرمينية يهدد باستمرار إمارتى أنطاكية وطرابلس فشلهما تماماً عن القيام بأى عمل عدائى ضد المسلمين(١) . وإذا عرفنا أن الصليبيين كانوا يعتمدون على ما يرد إليهم من مؤن وإمدادات تصل إليهم من أوربا ، وكانت هذه الإمدادات قد انقطعت عنهم ، إذا علمنا ذلك أدركنا مدى ما أصاب مركزهم من حرج . أضف إلى ذلك أن النزاع كان كثيراً ما يحدث بين أهل جنوة والبندقية ، وكانت الغيرة والحسد توغر صدور بعضهم ضد بعض . كل ذلك دفع هؤلاء إلى الاستعانة أحياناً بالمسلمين على بعضهم البعض(٢) . وعلى هذا الأساس إذا كان هناك من خطر صليبي فلابد أن يأتى هذا الخطر من أوربا . لذلك نجد الإمبراطور هنرى السادس يلبي دعوة البابا للحرب الصليبية المعروفة بالرابعة سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥م) . وإذا كانت هذه الحملة قد وصلت إلى عكا سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) ، فقد كان نصيبها الفشل بسبب وفاة الإمبراطور فى السنة التالية(٣) .

ثم جاءت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، نتيجة لنداء البابا ونداءات إمبراطور القسطنطينية المتكررة ، فلبى الدعوة ملوك هنغاريا والنمسا وقبرص وأرمينية ، كما اشترك فيها عدد من الشبان المتحمسين من فرنسا وألمانيا ، ولذا سميت حملاتهم بحملات الأطفال . وقد أسر كثير من هؤلاء الشبان وبيعوا فى أسواق النخاسة فى البلدان المختلفة ومن بينها مصر(٤) . وتجمعت القوات الباقية عند عكا سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) ، وبعد عدة هجمات

---

(١) Lane - Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 216 - 217.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 653.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤) Barker : The Crusades, p. 75.

فاشلة على المعسكر الإسلامى ، وجد الصليبيون ألا سبيل إلى القضاء على المسلمين إلا بالاستيلاء على مصر قلب ، دولتهم[١] .

وعلى الرغم من نزول قوات الصليبيين فى دمياط واستيلائهم عليها وتحرج مركز المسلمين بسبب وفاة العادل ، إلا أن هذه الحملة كان نصيبها الفشل أيضا لأسباب ترجع إلى الصليبيين أنفسهم ، إذ أنهم كانوا يجهلون مصر وطبيعة أرضها ، فاختاروا طريق دمياط للوصول إلى القاهرة مع أن هذا الطريق كانت تحوطه شبكة من القنوات تعرقل سير العمليات الحربية. ولما كان الصليبيون قد اختاروا وقت الفيضان لزحفهم ، فقد انتهز المسلمون هذه الفرصة وحطموا سدود النيل وأغرقوا الأراضى المحيطة بالصليبيين فلم يتمكنوا من التقدم أو التقهقر . وأما الطريق الطبيعى لغزو مصر ، فهو الطريق الشرقى الذى سلكه بنجاح كل من قمبيز والإسكندر وعمرو بن العاص وعمورى الأول . فلو أن الصليبيين سلكوا هذا الطريق لربما أمكنهم السيطرة على مصر. لذلك نجد الكامل يرغم الصليبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م) بمساعدة أخيه المعظم صاحب دمشق على عقد هدنة أمدها ثمانى سنوات وأن يتركوا السواحل المصرية . ومن الغريب أنه كان من بين شروط الصلح أن يكون لأى أوربى متوج الحق فى أن ينقض هذه الهدنة ، لذلك نجد الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك جنوب إيطاليا ينقض هذه الهدنة ، ويرحل إلى الشرق سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م)فى حملته المعروفة بالحملة السادسة ، واستطاع هذا الإمبراطور الصغير أن يعقد مع المصريين معاهدة سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) ، سلم فيها هؤلاء بيت المقدس إلى الصليبيين على أن يكون لهم أيضا الطريقان الموصلان من يافا وعكا إلى بيت المقدس وهما ضروريان للحجاج من المسيحيين . وقد تعهد الصليبيون فى سبيل ذلك أن يساعدوا المسلمين ضد أعدائهم من المسلمين والمسيحيين على السواء وأن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٧ — ١٤٨ و Lane - Poole ; A Hist. of Egypt, p. 219

يحولوا دون وصول الإمدادات الصليبية إلى بلاد الشام ، ويتركوا للمسلمين المسجد الأقصى ببيت المقدس[١] . ولم يكن الدافع الذى حدا بالمسلمين إلى تسليم بيت المقدس راجعا إلى ضعفهم أمام الصليبيين ، بل كان نتيجة للنزاع الذى كان قائما بين الكامل والمعظم ، ورغبة ثانيهما فى اعتلاء عرش الدولة الأيوبية بعد إبعاد الأول عنها ، مما حمل الكامل على تفضيل الاتفاق مع الصليبيين لمعاونته ضد جميع المسلمين من أعدائه . ثم رحل الإمبراطور فردريك الثانى بعد ذلك إلى إيطاليا[٢] .

ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن بيت المقدس ظلت فى أيدى الصليبيين حتى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤م) أى إلى أن استعادها الصالح أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) بمساعدة جماعة من الخوارزميين كانوا قد رحلوا إلى غرب آسيا بعد أن غزا جنكيزخان بلادهم ، فاستغلهم الصالح أيوب للاستيلاء على هذه المدينة .

* * *

مما تقدم نرى أن مصر وبلاد الشام ، كانت فى الفترة السابقة للغزو المغولى للعالم الإسلامى ، بل وفى أثناء هذا الغزو فى حالة ضعف شديد نتيجة لانحلال هذا الجزء من العالم الإسلامى وانقسام زعمائه على أنفسهم ، رغم هذه الفترات القصيرة المتقطعة التى كانت تبدو فيها مصر ومعها بلاد الشام متماسكة . وقد زاد فى هذا الانحلال ما أحدثه الصليبيون من تأثير سياسى

---

(١) Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 225-228.

(٢) نلاحظ أن النزاع الذى حدث بين الكامل والمعظم ، كان قبل مجىء الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة إلى بلاد المشرق ، وأن الكامل طلب معونة الإمبراطور فردريك وعرض عليه بيت المقدس قبل أن يرحل إلى الشرق باعتباره حاكما على المسلمين فى صقلية ، بل وتبودلت الهدايا بين الطرفين عندما جاء أسقف بلرمو إلى القاهرة . وعلى الرغم من أن المعظم توفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) ، إلا أن الإمبراطور عندما جاء إلى الشرق فى السنة التالية استطاع بدهائه وحنكته السياسية أن يتخذ من اتفاقاته السابقة مع الكامل أساسا لعقد معاهدة سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) .

واقتصادى فى هذا المسرح التاريخى وجعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من انحلال نتيجة للعوامل التى ذكرناها ، فلم يستطع حكام مصر والبلاد الشامية أن يوحدوا كلمتهم بحيث يستطيعون أن يقفوا إلى جانب الخوارزميين ثم إلى جانب الخلافة العباسية فى بغداد عندما هم المغول باجتياح هاتين القوتين الواحدة تلو الأخرى .

وعلى هذا الأساس لم يستطع هذا العالم الإسلامى المتفكك أن يتحد ويواجه أعداءه كتلة واحـدة ، فكانت النتيجة أن اقتطع الصليبيون ما استطاعوا أن يقتطعوه من الأراضى الإسلامية فى بلاد الشام ، ثم أتى المغول من أقصى الشرق فحطموا حضارة تعب الأولون فى تـكوينها ، وقتلوا وسبوا وأحرقوا دون أن يعوقهم عائق أو يمنعهم مانع .

خاتمة

حول الغزو المغولى

الهجرات القبلية من شمال شرق آسيا . ظهور جنكيزخان. قوانين المغول فى عهد جنكيزخان. غزو جنكيزخان للبلاد الإسلامية . نظام المغول الحربى . ضعف الدولة الخوارزمية . الخوارزميون بعد الغزو المغولى . أثر زوال الدولة الخوارزمية فى اتجاه المغول إلى أملاك الخلافة . حملة هولاكو والقضاء على الخلافة العباسية .

لوحة ١٥



صورة تمثل فرسان جنكيزخان بعد غارة موفقة فى آسيا الوسطى ، ترجع فى الغالب إلى سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥٠م)

(عن كتاب Harol Lamb : Genghis-Khan.)

خاتمة

حول الغزو المغولى

نعلم من دراستنا للتاريخ العام، أن الأقاليم الشمالية الشرقية من القارة الأسيوية كانت منذ فجر التاريخ المورد الذى انبعثت منه الهجرات القبلية المتعددة التى غزت أقاليم آسيا المختلفة، ونتج عن اندفاع بعضها صوب غربى آسيا هجرة كثير من القبائل إلى أوربا، وكانت من العوامل الرئيسية التى أودت بالإمبراطورية الرومانية(1) . وقد زخرت هذه الجهات من القارة الأسيوية بالقبائل الرحل المتنقلة من مكان إلى مكان نتيجة لظروف البيئة، ومن أهمها قبائل المغول التى نشأت فى الهضبة المعروفة بهضبة منغوليا شمال صحراء جوبى . وقد أملت ظروف البيئة فى هذه الجهات، على القبائل المغولية أن تعيش عيشة رعوية بحتة قوامها التنقل من مكان إلى مكان سعياً وراء الرزق القليل من العشب . وعلى الرغم من تعدد القبائل المتنقلة فى هذه الجهات، فإن كل قبيلة من القبائل كانت تكوّن وحدة قائمة بذاتها أساسها وحدة الجنس واللغة(2) . على أن هذه القبائل جميعها كانت فى جملتها تعيش عيشة بربرية بحتة، وتتوق إلى تعرف كنه الحضارات المجاورة لها ولا سيما الحضارة الصينية فى الجنوب . لذا لم تتردد فى الإغارة عليها بين وقت وآخر منتهزة فرصة ضعف قد يحل بهذه البلاد، وكان هدفها سلب مايمكن الوصول إليه، ويرجع سبب بناء سور الصين العظيم الذى بناه أهل الجنوب فى الفترات الأولى من التاريخ، إلى رغبتهم فى دفع غارات القبائل الشمالية المتبربرة(3) .

---

(1) Hart : Mongol Compaigns, p. 705. (Ency. Brit. vol. xv.)

(2) Grenard : Gengis - Khan, p. 8.

(3) Little : The Far East, p. 184.

وكانت قبائل المغول فى العصر الذى نحن بصدده تعيش فى الأقاليم الواقعة بين بحيرة بيكال فى الغرب وجبال كنجان على حدود منشوريا فى الشرق. على أن هذه الفوضى الاجتماعية السائدة فى هذه الأقاليم كانت فى حاجة ملحة إلى الإصلاح على يد زعيم يخرج من بين هذه القبائل، فيتمكن من توحيدها ثم النهوض بها. وكانت هذه الشخصية هى شخصية تموجين[١]، الذى استطاع بدهائه أن يجمع شمل القبائل المتفرقة الساكنة فى شمال بلاد الصين، وانتهى الأمر بانتخابه خاقاناً عليها سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م)[٢]. وبعد أن تم له ما أراد، أبدل اسمه باسم جنكيزخان[٣] أى أعظم الحكام The Greatest of Rulers، واختار مدينة «قره قورم» حاضرة لملكه.

وبعد أن استوى جنكيزخان على العرش الذى أسسه لنفسه، رسم سياسة واضحة الأهداف ترمى إلى التوسع فى الجنوب بقصد اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من البلاد الصينية، والتوسع فى الغرب بقصد إخضاع بعض القبائل التى فرت من وجهه وأهمها قبائل الخطا التى سبق الكلام عنها[٤]، ثم وضع لشعبه دستورا اجتماعياً متين البنيان، ودستوراً حربياً لا يقل عنه قوة،

---

(١) يكتب فى الفارسية والتركية «تموچين».

(٢) لفظ «خاقان» لقب أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه رئيس الرؤساء أو أعظم الحكام. أما لقب «خان» فكانوا يطلقونه على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الإمبراطورية المغولية. وقد استعمل المغول لقب «خان» أيضا بمعنى خاقان، وربما كان ذلك من باب الرغبة فى الاختصار. ومما هو جدير بالذكر أن الفرق بين «خان» و «خاقان» يشبه الفرق بين كلمتى «سلطان» و «ملك»، فالسلطان هو الملك الأعظم كالسلطان صلاح الدين الأيوبى، أما ملك فهو أحد ولاة السلطان من أبناء بيته كالملك العادل حينما كان صاحب دمشق من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبى. وقد وجد هذا الفرق أيضا عند الفرس، فإن لقب «شاهنشاه» ومعناه «ملك الملوك» يتميز عن لقب «شاه» فقط وهو «الملك الصغير».
انظر المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٧ حاشية ٤.

(٣) النطق الأصلى الصحيح لهذا الاسم هو ما يتفق مع الكتابة الفارسية والتركية: چنگيزخان.

(٤) راجع صفحة ٤٦ حاشية ٢.

وتكون أحكام هذا وذاك، القانون المعروف باليساق[١] . وهو قانون مختصر بسيط ولكنه حازم صارم قوامه احترام المجتمع المغولى واحترام الصغير لقدر الكبير ، ويشتمل هذا القانون على الأسس التى يقوم عليها نظام

---

(١) يقول المقريزى فى كتابه الخطط عن قانون اليساق مايلى : « إن جنكيزخان القائم بدولة التتر فى بلاد المشرق ، قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه ياسة ، ومن الناس من يسميه يسق والأصل فى اسمه ياسة . ولما تمم وضعه كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم . . . وأخبرنى العبد الصالح الداعى إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. ومن جملة ما شرعه جنكيزخان فى الياسة أن من زنى قتل ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله قتل، وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفة وألا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى ، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير، ولزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يشركه معه فى أكله، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه . . . وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه ، وألزمهم أن لا يدخل أحد يده فى الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشيء إنه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ولا يفرق بين طاهر ونجس ، وألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قد قصر فى شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه . وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال . . . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه، وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة » انظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

المغول الحربى ، الذى يقوم على الطاعة العمياء ، واحترام الصغير من يعلوه فى الرتبة العسكرية ، وقد سن جنكيزخان عقوبات مختلفة رادعة لمن يقصر فى أداء واجباته من الضباط والجنود . وبهذين النظامين الحربى والاجتماعى واصل جنكيزخان سياسته ، فتمكن من إخضاع بعض الأقاليم الشمالية من بلاد الصين ، وعند مااتجه للانتقام من أعدائه الذين فروا من وجهه واعتصموا بالأقاليم الغربية ، اصطدم بالقوى الإسلامية ولاسيما الدولة الخوارزمية التى كانت قد وصلت إلى أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه ، ثم تطورت الحوادث بسرعة وتمكن المغول من اكتساح أراضى الدولة الإسلامية .

* * *

وقد توالت الغزوات المغولية على أقاليم الشرق الإسلامى منذ بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وكان غزو جنكيزخان أول هـذه الغزوات ، فقد استطاع فى سهولة ويسر أن يكتسح الدولة الخوارزمية التى كانت قد بلغت أقصى اتساع لها فى عهـد علاء الدين محمد خوارزم شاه كما ذكرنا ، وتمكن من إخضاع أراضيها وتخريب مدنها والتنكيل بسلطانها فى مدة لاتزيد عن أربع سنوات ، إذ بلغ جنكيزخان حدود الدولة الخوارزمية سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م) ، وأتم إخضاع هذه الدولة وشرع فى العودة إلى منغوليا سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) .

وكان غزو جنكيزخان للشرق الإسلامى عنيفاً كل العنف . فقد خرب المغول كل ما صادفهم فى البلاد التى وطئتها أقدامهم ، ونكلوا بالمسلمين ، وتفننوا فى تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب . ويعتبر ابن الأثير عمدة مؤرخى المسلمين الذين عاصروا حوادث غزو جنكيزخان ، وتنم كتاباته عن جسامة الخطب ، كما تنم أيضاً عما كان يعانيه المسلمون من آلام نفسية ، فضلا عما تصوره من ضعف فى حالتهم المعنوية ، وكاد ابن الأثير نفسه يقلع عن سرد حوادث هذا الغزو ، كما يتبين من هذه العبارة :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً »
« لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن »
« الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن »
« الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت »
« قبل هذا وكنت نسياً منسياً . إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء »
« على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى »
« نفعاً . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة »
« الكبرى . . . فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى »
« آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ؛ فإن التواريخ لم »
« تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . وهؤلاء لم يبقوا على »
« أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون »
« الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول »
« ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها »
« وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح[١] » .
وقد قال السيوطى عن غزو جنكيزخان للشرق الإسلامى ما يلى :

« هو حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوى الأخبار ، »
« وتاريخ ينسى التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق »
« الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض[٢] » .

وقد تعرض بعض الكتاب والمؤرخين من الأوربيين لحوادث الغزو المغولى ووصفوا ما أصاب الشرق الإسلامى فى أثنائه . فشبه هارولد لام Harold Lamb هذه القوة البدائية بالريح العاصفة والزلزال العالمى ، إذ استطاعت هذه القوة البشرية أن تصل إلى حدود آسيا الشرقية والغربية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٠ .

وأن تعبر سفوحها الوعرة بعقل لا يفترق عن عقل الحيوان الذى لا يكترث لتعذيب البشر، الشره لكل ما هو جديد براق والذى يندفع اندفاع الأطفال الذين لا يدركون معنى المسئولية[١]. كذلك يرجع سيكس Sykes[٢] حب المغول للتخريب إلى طبيعتهم البدائية، بحيث كانوا إذا احتكوا ببلد من البلدان المتحضرة اندفعوا إلى تدمير حضارته بسبب خوفهم منها، وعلى هذا الأساس نرى المغول وقد احتكوا ببلاد الصين ولمسوا طرفا من حضارتها يندفعون إلى كراهية المخلوقات المجاورة لهم فهاجموها ونكلوا بالرجال والنساء والأطفال، كما أحرقوا المدن والقرى ولم يتركوا وراءهم بعد الغزو إلا بلدانا مخربة مكتظة بجثث القتلى. وعن طريق هذا التعليل، نستطيع أن ندرك السبب الذى حدا بالمغول إلى تخريب المدن الإسلامية العامرة بسكانها ومبانيها الفخمة التى تفنن الصناع المسلمون فى تزيينها.

بهذه الروح البربرية الغاشمة، سار جنكيزخان لغزو البلاد الإسلامية فبلغها سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م). ومن الخطأ أن نعتقد أنه سار إلى هذه البلاد على غير خطة رسمها لنفسه، بل الواقع أن خططه ونظمه الحربية كانت من الأمور التى تسترعى نظر الباحثين. فقد أجهز أولا على كل بلاد ما وراء النهر ثم وزع أمر الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة بين أبنائه وقواده، فبينما توجه جيش إلى إقليم خوارزم، توجه جيش آخر إلى خراسان، كما توجه قواد آخرون إلى أقاليم العراق العجمى وأذربيجان وجورجيا يعيثون فيها فسادا، وفى ذلك الوقت كان جنكيزخان نفسه يتم إذلال المدن الواقعة فى أعالى نهرى سيحون وجيحون ويمهد للاستيلاء على إقليم غزنة[٣].

وقد أحكم جنكيزخان تنظيم جيوشه، إذ قسمها إلى فرق كبيرة تتكون كل منها من عشرة آلاف رجل، تنقسم بدورها إلى فرق من ألف ثم فرق

---

(١) H. Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 337.

(٢) Sykes : A History of Persia, pp. 55 - 56.

(٣) انظر كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للمؤلف، ص ١١٧.

من مائة وفرق من عشرة ، وعلى رأس كل فرقة من هذه الفرق الكبيرة والصغيرة قائد يتصرف فى فرقته حسب ما يراه ، على أن هؤلاء القواد جميعا كانوا يرجعون في النهاية إلى جنكيزخان[١] . وقد جعل جنكيزخان أساس الترقية من رتبة إلى رتبة أعلى منها الكفاءة وحدها دون أى اعتبار آخر .

ولم ينس المغول أن ينظموا جيوشهم تنظيما محكما أثناء القتال فقسموها إلى وسط وجناحين أيمن وأيسر ، فتتحرك هذه الفصائل فى أثناء المواقع الحربية وتحيط بالعدو كلما دعت الخطة الحربية إلى ذلك[٢] . وكانت قوات الوسط تتكون من فرق ثقيلة أمامية وأخرى خفيفة خلفية وكانت الأخيرة مسلحة بأدوات الحرب الخفيفة ، ليمكنها التنقل من مكان إلى آخر ومناورة العدو ، فيسهل بذلك على الفرق الثقيلة الأمامية التنكيل به .

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما يتعلق بفن الحرب عند المغول ، ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن أسلحتهم الحربية كانت ولا تزال من الأمور التى يقف عندها الباحثون ، فقد كانوا يستعملون خلاف القوس والنشاب والسيوف والمجانيق ، آلات لقذف الرماح على الأعداء Machines á lancer des javelots وهى تستعمل فى قذف السهام بكثرة ولمسافات بعيدة على الأعداء ، كما كانوا يستعملون آلات مشابهة لقذف اللهب Machines á lancer des pots de naphts تساعدهم على إشعال الحرائق فى المدن المحاصرة[٣] .

إذا تركنا جانب المغول ، وبحثنا العوامل الكامنة فى الشرق الإسلامى والتى ساعدت المغول على اكتساحه ، نرى أن من هذه العوامل ما هو عام ومنها ما هو خاص ، وأقصد بالعام اضطراب حال الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، فقد كانت عوامل الانقسام تتهدده من كل جانب كما رأينا حتى أصبحت هذه البلاد مفككة الأوصال تتنازعها أيدى المغتصبين فى داخل

---

(١) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, pp. 348-9.

(٢) Vladimirtsov : The Life of Chingis-Khan, p. 70.

(٣) Hart : Mongol Compaigns, pp. 706-707. (Ency. Brit. vol. xv.) D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i, p. 289 - 290.

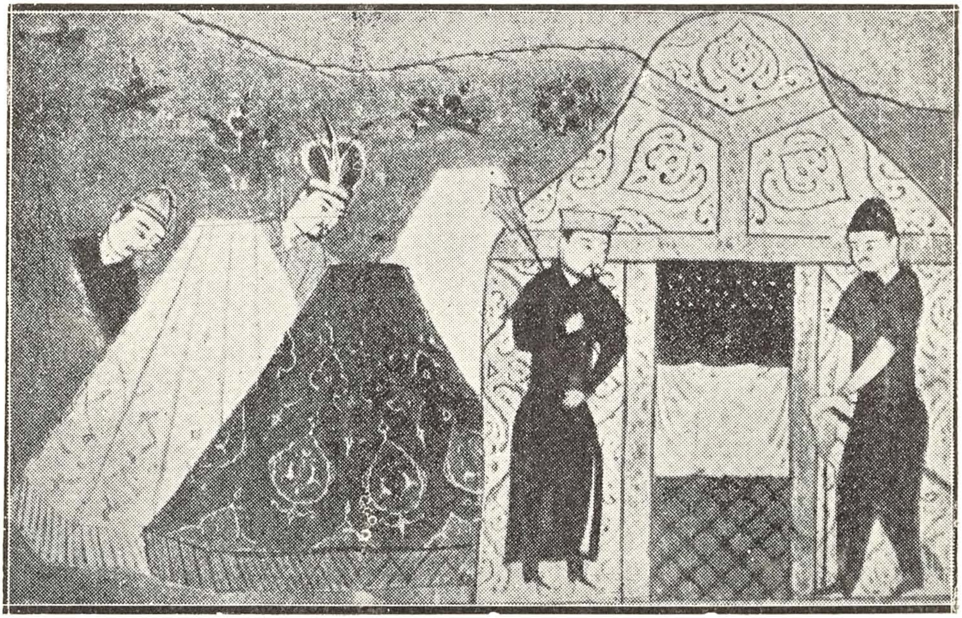
الدولة الإسلامية وخارجها . أما العوامل الخاصة فتنحصر فى اضطراب الحالة السياسية والاجتماعية فى الدولة الخوارزمية التى كانت أكبر قوة إسلامية فى ذلك الحين ، فقد واجه المغول دولة متسعة حقا ولكن عوامل الضعف والانحلال كانت تنخر فى عظامها . فلم يكن سكان هذه الدولة متحدين إلا فى العقيدة الدينية ، وعلى الرغم من ذلك كانت المذاهب الإسلامية منبع عداء مستمر بين المسلمين أنفسهم . كذلك كان سكان هذه الدولة خليطا من عناصر متباينة ، فكانوا يتألفون من الفرس والعرب والأتراك ، واعتمد الخوارزميون فى تكوين جيشهم على العنصر التركى وحده مما نتج عنه تذمر العناصر الأخرى فى الدولة . وكان لرباط المصاهرة بين سلاطين الدولة الخوارزمية وبين القبائل الساكنة فى السهول الشمالية أثره فى هجرة كثير من أفراد هذه القبائل إلى أراضى الدولة الخوارزمية ، وانخرط كثيرون من أفراد هذه القبائل فى وظائف هذه الدولة ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب وأرقاها . وقد تضاءلت قوة الخوارزميين أمام هذه الأقلية الأرستقراطية وشعر الأهلون وكذا السلطان بالحاجة إلى التحفظ فى إشباع رغبات هؤلاء الجند ، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالى المسالمين ونهب حوانيتهم فى الطرقات(١) . وقد سلك هؤلاء سبلا متعددة فى تعذيب الأهالى الآمنين ، فاضطرب الأمن فى البلاد واضطربت معه الدولة من الناحيتين السياسية والاجتماعية(٢) .

وهناك أمر آخر له أهميته وخطورته ، وهو أن الكثيرين من رجال هذه القبائل عهد إليهم بحكم بعض المدن والأقاليم وكانوا مطلقى اليد فيها ، فنظام الإقطاع الذى كان من أهم مظاهر العصر السلجوقى والذى ظهر بوضوح فى حكم الأتابكة ، استمر فى عهد الدولة الخوارزمية . ونلاحظ أن هؤلاء الأتراك على الرغم من استقلالهم ببعض أقاليم الدولة ، فإنهم لم يختلطوا

(١) D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i, pp. 196 - 8.

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

لوحة ١٦



رسم يمثل جنكيزخان واقفاً بباب خيمته الجميلة النقش ومن حولها خيام حاشيته
فى مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين

(عن كتاب Universal History of the World, vol. 5.)

بالأهالى ولم يندمجوا معهم ، بل على العكس كان كل همهم نهب البـــلاد والاستيلاء على ما تصل إليه أيديهم من خيراتها . وكان الجيش الخوارزمى يتكون من هؤلاء الأتراك عندما هم المغول باجتياح الشرق الإسلامى عامة والدولة الخوارزمية خاصة ، ولاشك أن هؤلاء الأتراك لم يهتموا فى كثير أو قليل بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم فى ذلك شأن كل جند مرتزقة يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم . لذا انعدمت الثقة بين السلطان الخوارزمى ، علاء الدين محمد ، وبين كبار قواده فى أثناء القتال ، إذ لم يكن هناك ما يحول دون تجمع عدد كبير من هؤلاء الأتراك تحت لواء قائد منهم ويشقون عصا الطاعة على السلطان الضعيف(١) .

وهكذا نرى أن قوة الجيش المغولى وإحكام تنظيمه ، وما يقابل ذلك من اضطراب الدولة الخوارزمية وضعف جيشها ، كل ذلك كان له أثره فى سرعة اكتساح المغول للبلاد الإسلامية وتخريبها حتى أصبحت هذه البلاد بعد رحيل جنكيزخان عنها أشبه ماتكون بصحراء جرداء ، إذ أباد المغول سكانها وخربوا مدنها ، كما نجح المغول أيضاً فى التنكيل بالأسرة الخوارزمية الحاكمة فطاردوا السلطان علاءالدين محمد حتى مات ذليلا معدماً فى إحدى جزر بحر قزوين ، أما أبناؤه فنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين ، ومنهم من ظل يحارب إلى أن استولى عليه اليأس ثم فر .

اشتبك جنكيزخان فى حرب مع جلال الدين منكبرتى بن علاء الدين محمد خوارزم شاه فى موقعة حربية بالقرب من نهر السند هزم فيها واضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند وظل فيها فترة من الزمن لايلوى على شىء . وبعد أن عاد جنكيزخان إلى بلاده كما ذكرنا ، غادر جلال الدين منكبرتى بلاد الهند سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) عائداً إلى أقاليم الدولة الخوارزمية ، وبعد جهد

---

(١) Vladimirtsov : The Life of Chingis-Khan, pp. 121 -122.

تمكن من أن يستقر على عرش أبيه . وقد قضى جلال الدين منكبرتى الفترة التى قضاها فى حكم الدولة الخوارزمية إلى أن قتل سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) فى صراع دائم مع الخلافة العباسية وحكام الأقاليم المجاورة ، كما حاول فى هذه الفترة أن يوطد نفوذه فى داخل دولته نفسها .

ظل حال الدولة المغولية فى اضطراب بعد وفاة جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧ م) واستمر الحال كذلك حتى تجمع المغول وقوادهم وأمراؤهم المنتشرون فى الأراضى الخاضعة لهم إلى عاصمتهم «قره قورم» لانتخاب الخاقان الجديد ، وقد انتخب أجتاى بن جنكيزخان سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) ، وكان مما أخذه على عاتقه إعادة غزو الأقاليم الإسلامية ، فجهز جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل وولى قيادته اثنين من أمهر قواده هما شيرماجون Churmagun وبيدشو Baidshu (١) ، وقد سارت الجيوش المغولية إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية فى سرعة فائقة بغيـة مطاردة ذلك السلطان الذى حاول أن يستعيد ملك آبائه . وقد تمكن المغول من هزيمته هزيمة منكرة فى أعالى نهر دجلة اضطر بعـدها إلى أن يلجأ إلى جبال كردستان (٢) ، وهناك قتل على أيدى أحد الأكراد . وقد عادت الدولة الخوارزمية بعد هزيمة جـلال الدين منكبرتى إلى حوزة المغول الذين ظلوا يحكمونها حكما استبدادياً غايته جمع المـــال بالوسائل المشروعة وغير المشروعة ، رغم محاولاتهم أحياناً النهوض بهذه البلاد وإصلاح ما خربته أيديهم من قبل .

* * *

كانت البلاد الإسلامية التى أخضعها جنكيزخان وعلى رأسها الدولة الخوارزمية بمثابة حاجز منيع يحول بين الشعوب والقبائل المتبربرة فى شرق نهر سيحون وبين أملاك الخلافة العباسية بوجه خاص وأقاليم غرب آسيا بوجه عام . وعلى هذا الأساس كان من السهل على المغول أن يغيروا على

---

(١) Howorh : History of the Mongols, part i, p. 130

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٢٤٥ .

أقاليم آسيا الغربية بعد أن سقطت الدولة الخوارزمية فى أيديهم . وقد عبر إدوارد براون E. Browne عن هذه الحقيقة بقوله : لم تكن الدولة الخوارزمية إلا قنطرة يجب على المغول أن يعبروها حتى يتمكنوا من القضاء على الدولة العباسية (١) .

ولم تكن أهمية الدولة الخوارزمية بخافية على أمراء المسلمين فى ذلك الوقت ، ومما يدل على ذلك أنه لما قتل جلال الدين منكبرتى كما ذكرنا ، ذهب بعض خواص الأشرف موسى صاحب دمشق يهنئونه بمقتل عدوه فقال لهم :

« تهنونى به وتفرحون ، سوف ترون غِبّه ، والله لتكونن »
« هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام . ما كان »
« الخوارزمى إلا مثل السد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج (٢) »

وقد وضح خطر المغول على أملاك الخلافة العباسية فى عهد مانجوخان (٦٤٦ — ٦٥٨ هـ = ١٢٤٨ — ١٢٥٩ م) (٣) . فبعد أن تم انتخابه خاقاناً على المغول سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١م) ، جهز حملتين كبيرتين إحداهما بقيادة أخيه كوبلاى خان كان هدفها إتمام فتح بلاد الصين ، أما الثانية فقد أسند قيادتها إلى أخيه الأصغر هولاكو ، وكان الغرض منها القضاء على طائفة الإسماعيلية فى فارس ثم الاستيلاء على بغداد حاضرة الخلافة العباسية (٤) .

---

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 436.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٣) انتخب مانجوخان خاقانا على المغول فى مجلس الكورلتاى الذى عقد لهذا الغرض فى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٤٩ هـ (أول يوليو سنة ١٢٥١ م)

انظر Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, p. 242.
Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 452.

ويلاحظ أن اسم مانجوخان يكتب فى بعض المراجع العربية منكوخان وفى الفارسية منكوخان ومنكوقا آن .

(٤) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 452.

ومنذ ذلك الحين بدأ هولاكو يستعد لحملته على غرب آسيا، فجهز العتاد وجند مايلزمه من الرجال وزود جيوشه بالمهندسين الصينيين للاستعانة بهم فى تنصيب المجانيق وقذف المواد الملتهبة على المدن المحاصرة، كما أمر بإصلاح الطرق التى ستمر فيها الجيوش المغولية وإقامة القناطر على الأنهار التى ستصادفها هذه الجيوش. وفضلا عن ذلك فقد أخذ هولاكو ومانجوخان يتقربان من الملوك والأمراء المسيحيين فى غرب آسيا، وكان كل من المسيحيين والمغول يحاول التقرب من الآخر بغية القضاء على الخليفة العباسى عدوهما المشترك، كما كان المسيحيون يأملون أن يساعدهم المغول على استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين.

وصل هولاكو إلى بلاد ماوراء النهر سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م)، ثم عبر نهر جيحون فى السنة التالية متجهاً إلى حصون الإسماعيلية بغية تحطيمها. وقد قضى هولاكو عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) متنقلا بين مدن فارس يتابع إرسال الحملات للاستيلاء على قلاع الإسماعيلية، وقد استطاع فعلا فى نهاية هذه السنة أن يستولى على قلعة «ألموت»، وأن ينكل بكل من ينتمى إلى هذه الفئة المخربة(١)، واتجه بعد ذلك إلى الاستيلاء على بغداد.

وقد أرسل هولاكو فى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٢٥٧م) رسالة إلى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه فيها إلى التسليم وتقويض حصون حاضرته، كما دعاه فى هذه الرسالة أيضاً إلى الحضور بنفسه ليعلن خضوعه. ولم يهتم الخليفة كثيراً بموضوع هذه الرسالة بل وأكثر من ذلك لم يهتم اهتماماً جدياً بأمر الدفاع عن المدينة رغم تحذير وزيره ابن العلقمى(٢). وكانت النتيجة أن أحاط هولاكو سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) بمدينة بغداد من جميع جهاتها، وحاول الخليفة فى هذه الأثناء، دون جدوى، أن يدخل فى صلح مع المغول، فلما فشل فى محاولته، لم يجد

---

(١) Bretschneider : Mediæval Researches, vol. i, p. 118.

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٢٩٢.

أمامه بدآ من الذهاب بنفسه إلى معسكر هولاكو حيث سلم حاضرته التى أعمل المغول فيها النهب والسلب والتخريب . وكان لسقوط بغداد أثره البالغ فى مسارعة أمراء غربي آسيا إلى التسليم ، ومن هؤلاء سلاجقة الروم، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . أما البلاد التى لم تسلم للمغول طوعاً فقد خضعت كرها .

وكان هدف هولاكو بعد سقوط بغداد أن يستولى على سوريا ثم مصر ، فأرسل إلى حكام البلاد التى ستمر فيها جيوشه رسائل كلها تهديد ووعيد[١] ، وبعد أن أتم استعداداته الحربية ، اتجه نحو الغرب مكتسحاً مابقى من بلاد مابين النهرين ، ثم رحل إلى حلب وخربها سنه ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) . وقبل أن يتم إخضاع البلاد السورية ، رأى أن يعود إلى بلاده تاركا لقائده كتبغا إتمام هذا المشروع[٢] . أما عن السبب الذى دفع هولاكو إلى التفكير فى العودة إلى بلاده فى هذا الوقت قبل أن يتم فتوحه فى سوريا ومصر ، فهو رغبته فى الاشتراك فى انتخاب خلف لأخيه مانجوخان الذى كان قد توفى سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) [٣] ، بل يقال إنه كان يفكر فى المطالبة بعرش المغول بعد وفاة أخيه ، على أنه لما وصل إلى مدينة تبريز ، علم أن أخاه كوبلاى خان قد انتخب خاقاناً فعدل عن الذهاب إلى منغوليا[٤] .

والمهم أن نذكر أن كتبغا اتجه بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ميمما شطر البلاد المصرية . ولم يهتم المصريون بتهديده ووعيده ، بل سارعوا إلى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 446.

(٣) ذكر ستانلى لينبول فى كتابه The M. Dynasties ص ٢١٢ ، أن مانجوخان توفى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) وهذا خطأ ، إذ الحقيقة أنه توفى سنة ٦٥٨ هـ (أغسطس سنة ١٢٥٩م) ، ونستطيع أن نعتمد فى ذلك على ما ورد فى المراجع الصينية .

انظر Bretschneider : Mediæval Researches vol. i, p. 158, note, 418.

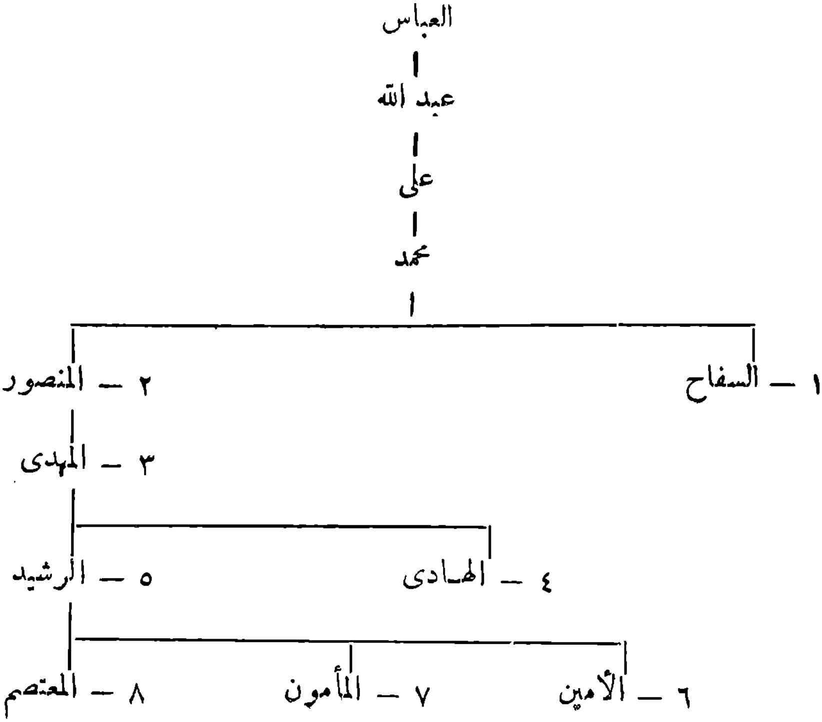
(٤) Howorth : History of the Mongols, part iii, p. 151.

ملاقاته ، وتمكن الظاهر بيبرس من أن يوقع بالمغول هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) ، كما تمكن المماليك من قتل عدد كبير من رجال الجيش المغولى واختطفوا البعض الآخر ، أما من نجا منهم من القتل والأسر فقد سارع إلى الهرب . وقد استطاع الظاهر بيبرس بعد هذا الانتصار الحاسم أن يعيد إلى حوزة المسلمين البلاد الشامية التى استولى عليها المغول من قبل وأهمها دمشق وحلب ، فكان ذلك أول انكسار للمغول فىالشرق الإسلامى ، ولولا هزيمتهم فى هذه الموقعة لتم لهم الاستيلاء على مصر ، ولتغير مجرى التاريخ المصرى لعدة قرون .

الجداول والمصادر والكشاف

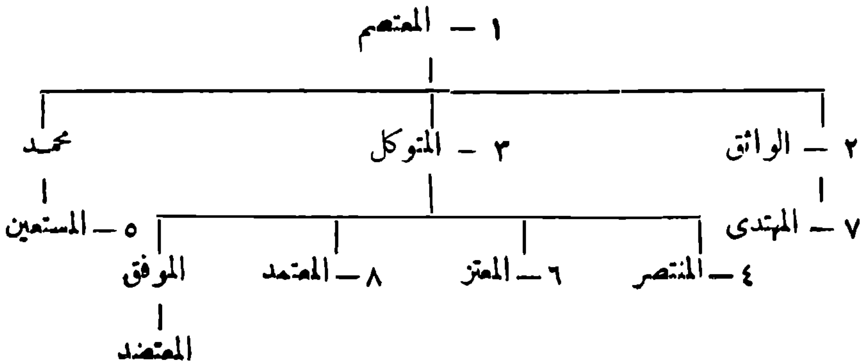
١ ـ الخلفاء العباسيون

قبل انتقال مركز الخلافة إلى سامرا



١ — السفاح ، أبو العباس عبد الله بن محمد : ١٣٢ — ١٣٦هـ = ٧٥٠ — ٧٥٤م .
٢ — المنصور ، أبو جعفر عبد الله بن محمد : ١٣٦ — ١٥٨هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥م .
٣ — المهدى ، أبو عبد الله محمد بن المنصور : ١٥٨ — ١٦٩هـ = ٧٧٥ — ٧٨٥م .
٤ — الهادى ، أبو محمد موسى بن المهدى : ١٦٩ — ١٧٠هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦م .
٥ — الرشيد ، أبو جعفر هارون بن المهدى : ١٧٠ — ١٩٣هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩م .
٦ — الأمين ، أبو موسى محمد بن الرشيد : ١٩٣ — ١٩٨هـ = ٨٠٩ — ٨١٣م .
٧ — المأمون ، أبو جعفر عبد الله بن الرشيد : ١٩٨ — ٢١٨هـ = ٨١٣ — ٨٣٣م .
٨ — المعتصم بالله ، أبو إسحق محمد بن الرشيد : ٢١٨ — ٢٢٧هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢م .

٢ ـ الخلفاء العباسيون
فى سامرا



١ — المعتصم بالله ، أبو إسحق محمد بن الرشيد : ٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢م.

٢ — الواثق بالله ، أبو جعفر هارون بن المعتصم : ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧م.

٣ — المتوكل على الله ، أبو الفضل جعفر بن المعتصم: ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ — ٨٦١م.

٤ — المنتصر بالله ، أبو جعفر محمد بن المتوكل : ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ = ٨٦١ — ٨٦٢م.

٥ — المستعين بالله، أبو العباس احمد بن محمد بن المعتصم: ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ — ٨٦٦م.

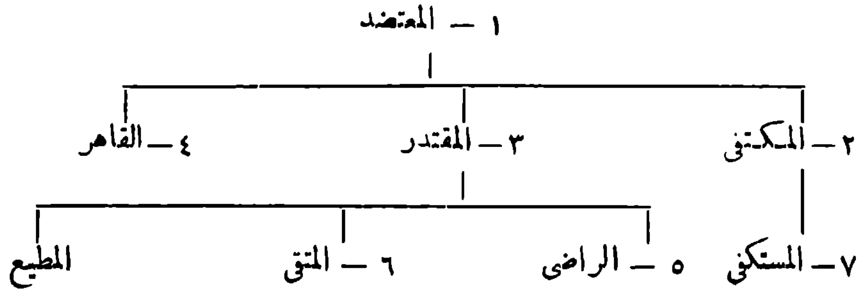
٦ — المعتز بالله ، أبو عبدالله محمد بن المتوكل : ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٩م.

٧ — المهتدى بالله ، أبو إسحق محمد بن الواثق : ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ — ٨٧٠م.

٨ — المعتمد على الله، أبو العباس احمد بن المتوكل : ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢م.

٣ ـــ الخلفاء العباسيون

تحت سيطرة الأتراك فى بغداد



١ — المعتضد بالله، أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل: ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢م.

٢ — المكتفى بالله ، أبو محمد بن المعتضد : ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ — ٩٠٨م.

٣ — المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد : ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢م.

٤ — القاهر بالله ، أبو منصور محمد بن المعتضد : ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ = ٩٣٢ — ٩٣٤م.

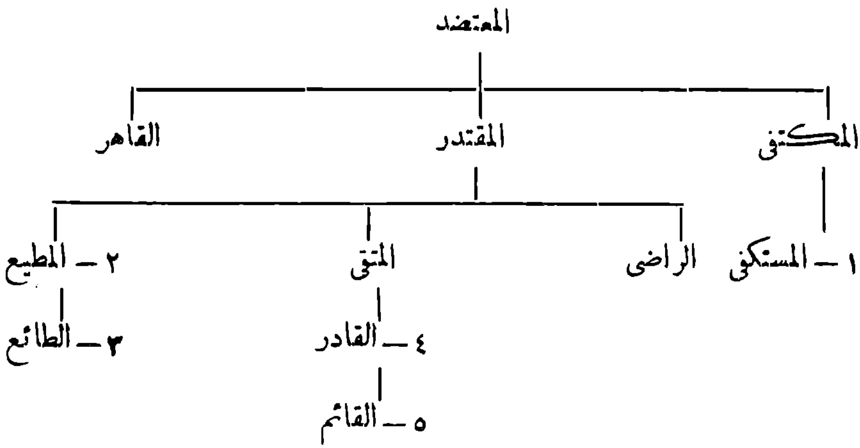
٥ — الراضى بالله ، أبو العباس أحمد بن المقتدر : ٣٢٢ — ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ — ٩٤٠م.

٦ — المتقى لله ، أبو إسحق ابراهيم بن المقتدر : ٣٢٩ — ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ — ٩٤٤م.

٧ — المستكفى بالله، أبو القاسم عبد الله بن المكتفى: ٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦م.

٤ ـ الخلفاء العباسيون

فى عصر بنى بويه



١ — المستكفى بالله ، أبو القاسم عبد الله بن المكتفى: ٣٣٣ — ٣٣٤هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦م .

٢ — المطيع لله ، أبو القاسم الفضل بن المقتدر : ٣٣٤ — ٣٦٣هـ = ٩٤٦ — ٩٧٤م .

٣ — الطائع لله، أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع : ٣٦٣ — ٣٨١هـ = ٩٧٤ — ٩٩١م .

٤ — القادر بالله، أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر[١]: ٣٨١ — ٤٢٢هـ = ٩٩١ — ١٠٣١م.

٥ — القائم بأمر الله ، أبو جعفر عبد الله بن القادر : ٤٢٢ — ٤٦٧هـ = ١٠٣١ — ١٠٧٥م.

---

(١) ذكر زامبور Zambour ، ص ٥ أن الخليفة القادر إنما هو ابن إسحق المقتدر وهذا قول مردود إذ أن الخليفة القادر إنما هو ابن اسحق (الخليفة المتقى) بن المقتدر . انظر ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٣ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٠ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ ، الفخرى ص ٢٥٤ .

٥ - الخلفاء العباسيون

منذ العصر السلجوقى حتى سقوط بغداد

١ – القائم

محمد

٢ – المقتدى

٣ – المستظهر

٤ – المسترشد

٥ – الراشد

٦ – المقتفى

٧ – المستنجد

٨ – المستضىء

٩ – الناصر

١٠ – الظاهر

١١ – المستنصر

١٢ – المستعصم

١ — القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد لله بن القادر: ٤٢٢ — ٤٦٧هـ = ١٠٣١ — ١٠٧٥م.
٤٥٠ — ٤٥١هـ = ١٠٥٨ — ١٠٥٩م، ثورة البساسيرى.
٢ — المقتدى بأمر الله، أبو القاسم عبدالله بن محمد بن القائم: ٤٦٧ـ٤٨٧هـ = ١٠٧٥ـ١٠٩٤م.
٣ — المستظهر بالله، أبو العباس أحمد بن المقتدى: ٤٨٧ — ٥١٢هـ = ١٠٩٤ـ١١١٨م.
٤ — المسترشد بالله، أبو منصور الفضل بن المستظهر: ٥١٢ـ٥٢٩هـ = ١١١٨ـ١١٣٥م.
٥ — الراشد، أبو جعفر المنصور بن المسترشد: ٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ = ١١٣٥ـ١١٣٦م.
٦ — المقتفى لأمر الله، أبو عبدالله محمد بن المستظهر: ٥٣٠ ـ ٥٥٥هـ = ١١٣٦ـ١١٦٠م.
٧ — المستنجد بالله، أبو المظفر يوسف بن المقتفى: ٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ = ١١٦٠ـ١١٧٠م.
٨ — المستضىء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد: ٥٦٦ـ٥٧٥هـ = ١١٧٠ ـ ١١٨٠م.
٩ — الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد بن المستضىء: ٥٧٥ـ٦٢٢هـ = ١١٨٠ ـ ١٢٢٥م.
١٠ — الظاهر بأمر الله، أبو نصر محمد بن الناصر: ٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ = ١٢٢٥ـ١٢٢٦م.
١١ — المستنصر بالله، أبو جعفر المنصور بن الظاهر: ٦٢٣ـ ٦٤٠هـ = ١٢٢٦ـ١٢٤٢م.
١٢ — المستعصم بالله، أبو أحمد عبدالله بن المستنصر: ٦٤٠ـ ٦٥٦هـ = ١٢٤٢ـ١٢٥٨م.

٦ — الأسرة السلجوقية
وفرعها فى سوريا

سلجوق

أرسلان — موسى — ميكائيل

من السلاجقة العظام

بيغو — ينال — (ا) طغرلبك +٤٥٥ (١٠٦٣م) — چغرى بك داود

(ب) ألپ أرسلان + ٤٦٥ ه (١٠٧٢م)

سلاجقة سوريا

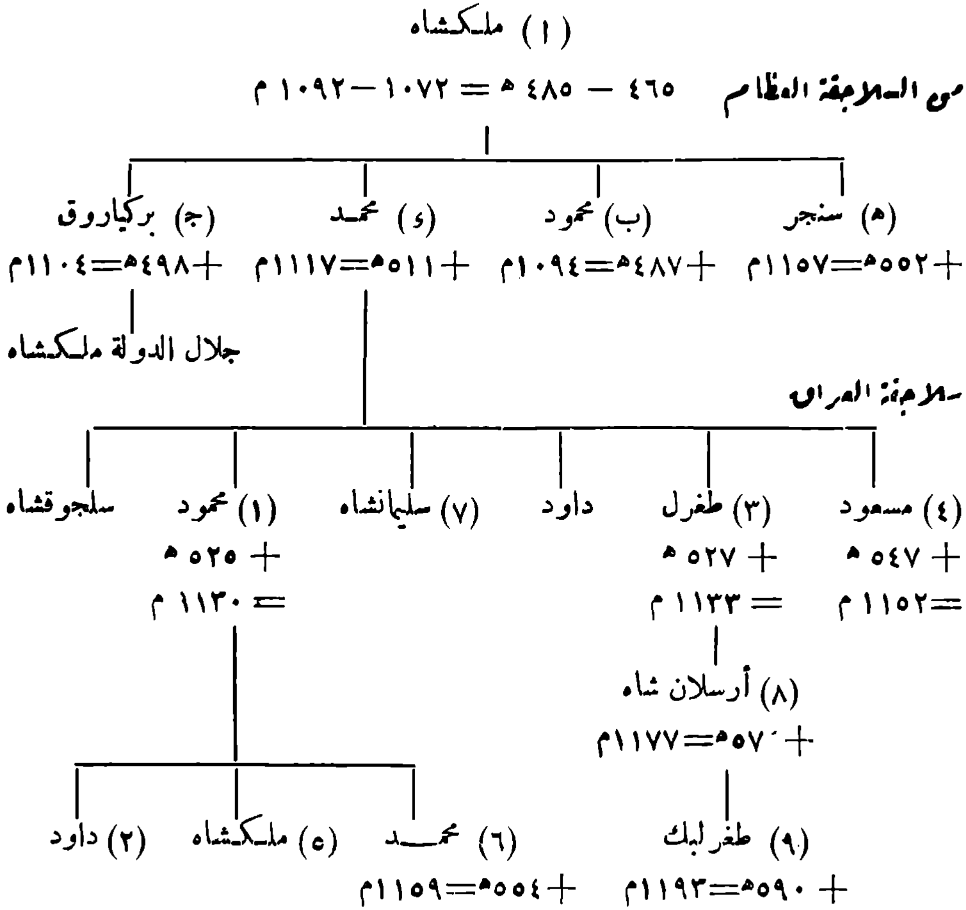
تتش + ٤٨٨ ه (١٠٩٥م) — (ج) ملكشاه +٤٨٥ (١٠٩٢ م) — تكش (طخارستان)

فى حلب — فى دمشق

١ — رضوان +٥٠٧ه (١١١٣م) — دقاق + ٥٠٨ه (١١١٤م)

٢ — ألپ أرسلان — ٣ — سلطان شاه

٧ — سلاجقة العراق وفارس
منذ عصر ملكشاه(*)



(*) مما هو جدير بالملاحظة أن حواضر سلاطين السلاجقة كانت تختلف من سلطان لآخر ، فمثلا اتخذ طغرلبك الأول مدينة نيسابور حاضرة له ، واتخذ ألب أرسلان مدينة مرو ، بينما حكم ملكشاه وأبناؤه ، محمود وبركياروق ومحمد ، فى أصفهان ؛ أما سنجر فقد اتخذ من مدينة مرو كبرى مدن خراسان ، حاضرة له ، انظر Sanaullah: The Decline of the Saljuqid Empire, p. 39. وقد ذكر دوسون أن ملكشاه اتخذ من مدينة مرو حاضرة له وربما كان ذلك فى بداية عهده ، أى عقب وفاة أبيه ألب أرسلان الذى كان يقيم فى هذه المدينة .
D'hosson : Histoire des Mongols, tom. i, p. 279.

٨ - الإسماعيلية فى فارس (١)

محمد يوسف الحميرى
|
حسين
|
جعفر
|
محمد
|
على
|
الصباح
|
الحسن
|
بزركميد
|
محمد الأول
|
الحسن الثانى
|
محمد الثانى
|
جلال الدين حسن الثالث
|
علاء الدين محمد الثالث
|
ايران شاه — ركن الدين خورشاه — شاهنشاه

١ — الحسن بن الصباح (٢) : ٤٨٣ — ٥١٨ هـ = ١٠٩٠ — ١١٢٤م،
٢ — كيا بزركميد الرودبارى : ٥١٨ — ٥٣٢ هـ = ١١٢٤ — ١١٣٧م.
٣ — محمد الأول بن بزركميد : ٥٣٢ — ٥٥٧ هـ = ١١٣٧ — ١١٦١م.
٤ — الحسن الثانى بن محمد : ٥٥٧ — ٥٦١ هـ = ١١٦١ — ١١٦٥م.
٥ — نور الدين محمد الثانى بن الحسن الثانى : ٥٦١ — ٦٠٧ هـ = ١١٦٥ — ١٢١٠م.
٦ — جلال الدين حسن الثالث بن محمد الثانى : ٦٠٧ — ٦١٨ هـ = ١٢١٠ — ١٢٢١م.
٧ — علاء الدين محمد الثالث بن حسن الثالث : ٦١٨ — ٦٥٣ هـ = ١٢٢١ — ١٢٥٥م.
٨ — ركن الدين خورشاه (٣) : ٦٥٣ — ٦٥٤ هـ = ١٢٥٥ — ١٢٥٦م.

---

(١) تعرف الإسماعيلية فى فارس بالنزارية نسبة إلى نزار بن الخليفة المستنصر الفاطمى .
(٢) ينتسب أغاخان زعيم الإسماعيلية فى بلاد الهند إلى الحسن بن الصباح .
(٣) قتل ركن الدين خورشاه على يد هولاكو فى ٢٩ شوال سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦)م .

٩ ــ أتابكة دمشق

٤٩٧ — ٥٤٩هـ (١١٠٣ — ١١٥٤م)

١ ــ طغتكين

٢ ــ بورى   ٣ ــ إسماعيل   ٤ ــ محمود   ٥ ــ محمد

٦ ــ أبَق (ابن محمد)

١ — أبو سعيد ، سيف الإسلام ، ظهير الدين ، معتمد الدولة ، طغتكين ، أتابك دقاق بن تتش : ٤٩٧ — ٥٢٢ هـ = ١١٠٣ — ١١٢٨ م .

٢ — تاج الملك بورى بن طغتكين : ٥٢٢ — ٥٢٦ هـ = ١١٢٨ — ١١٣٢ م .

٣ — شمس الملك إسماعيل بن طغتكين : ٥٢٦ — ٥٢٩ هـ = ١١٣٢ — ١١٣٤ م .

٤ — شهاب الدين محمود بن طغتكين : ٥٢٩ — ٥٣٣ هـ = ١١٣٤ — ١١٣٨ م .

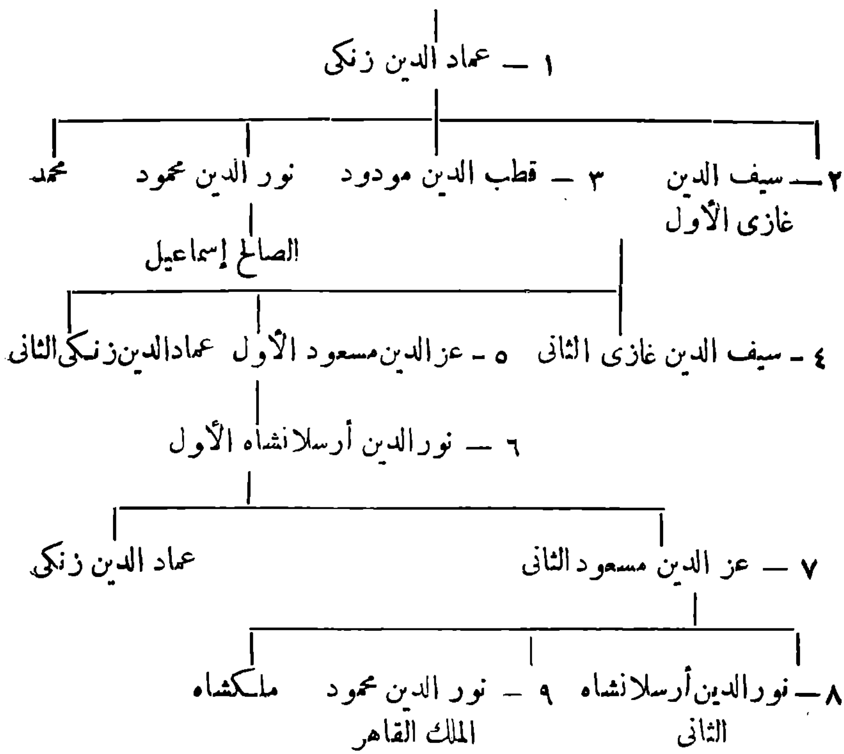
٥ — جمال الدين محمد بن طغتكين : ٥٣٣ — ٥٣٤ هـ = ١١٣٨ — ١١٣٩ م .

٦ — مجير الدين أبَق : ٥٣٤ — ٥٤٩ هـ = ١١٣٩ — ١١٥٤ م .

١٠ ـ اتابكة الموصــل

٥١٦ — ٦٦٠هـ = ١١٢٢ — ١٢٦٢م

قسيم الدولة آقسنقر الحاجب



١ — عماد الدين زنكى بن آقسنقر: ٥١٦ — ٥٤١ هـ = ١١٢٢ — ١١٤٦ م .

٢ — سيف الدين غازى الأول : ٥٤١ — ٥٤٤ هـ = ١١٤٦ — ١١٤٩ م .

٣ — قطب الدين مودود : ٥٤٤ — ٥٦٥ هـ = ١١٤٩ — ١١٦٩ م .

٤ — سيف الدين غازى الثانى : ٥٦٥ — ٥٧٦ هـ = ١١٦٩ — ١١٨٠ م .

٥ — عز الدين مسعود الأول : ٥٧٦ — ٥٨٩ هـ = ١١٨٠ — ١١٩٣ م .

٦ — نور الدين أرسلانشاه الأول: ٥٨٩ — ٦٠٧ هـ = ١١٩٣ — ١٢١٠ م .

٧ — عز الدين مسعود الثانى : ٦٠٧ — ٦١٥ هـ = ١٢١٠ — ١٢١٨ م .

٨ — نور الدين أرسلانشاه الثانى : ٦١٥ — ٦١٦هـ = ١٢١٨ — ١٢١٩ م .

٩ — ناصر الدين محمود، الملك القاهر : ٦١٦ — ٦٣١هـ = ١٢١٩ — ١٢٣٣ م .

١٠ — بدر الدين لؤلؤ : ٦٣١ — ٦٥٧هـ = ١٢٣٣ — ١٢٥٩ م .

١١ — ركن الدين إسماعيل بن لؤلؤ: ٦٥٧ — ٦٦٠هـ = ١٢٥٩ — ١٢٦٢ م .

سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) : الحكم المغولى .

١١ — أتابكة حلب

٥٤١ — ٥٧٩هـ = ١١٤٦ — ١١٨٣م

قسيم الدولة آقسنقر الحاجب

|

عماد الدين زنكى

|

سيف الدين غازى الأول　　قطب الدين مودود　　١ — نورالدين محمود　　محمد

|

٢ — الصالح إسماعيل

١ — الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى (١) : ٥٤١ — ٥٦٩ هـ = ١١٤٦ — ١١٧٣ م .

٢ — الصالح نور الدين إسماعيل : ٥٦٩ — ٥٧٧ هـ = ١١٧٣ — ١١٨١ م .

فى ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) : الاتحاد مع الموصل .

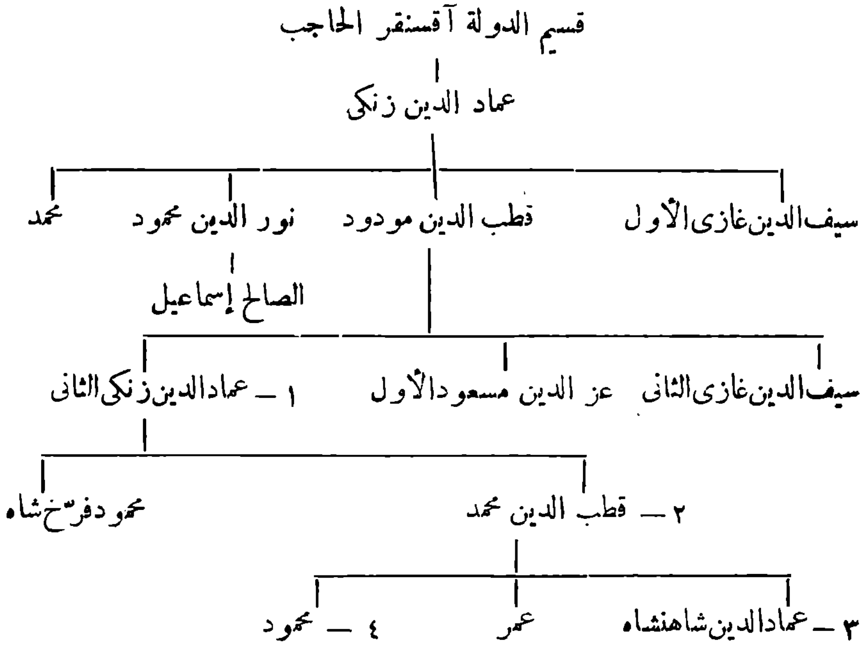
فى ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) : الخضوع للحكم الايوبى .

---

(١) ولد سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) وتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)

١٢ ـ أتابكة سنجار

٥٦٦ — ٦١٧ هـ = ١١٧٠ — ١٢٢٠ م



١ — عماد الدين أبو الفتح زنكى الثانى بن مودود : ٥٦٦ — ٥٩٤ هـ = ١١٧٠ — ١١٩٧ م.
٢ — قطب الدين محمد بن زنكى الثانى : ٥٩٤ — ٦١٦ هـ = ١١٩٧ — ١٢١٩ م .
٣ — عماد الدين شاهنشاه بن محمد : ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م .
٤ — جلال الدين محمود بن محمد : ٦١٦ — ٦١٧ هـ = ١٢١٩ — ١٢٢٠ م.
سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) حكم الأيوبيين .

١٣ — أتابكة الجزيرة

٥٧٦ — ٦٤٨ هـ = ١١٨٠ — ١٢٥٠ م

قسيم الدولة آقسنقر الحاجب

عماد الدين زنكى

سيف الدين غازى الأول — قطب الدين مودود — نور الدين محمود — محمد

(أبناء قطب الدين مودود:)

سيف الدين غازى الثانى — عز الدين مسعود الأول — عماد الدين زنكى الثانى

(ابن سيف الدين غازى الثانى:)

١ — معز الدين سنجرشاه

٢ — معز الدين محمود — مودود — غازى

٣ — مسعود

١ — معز الدين سنجرشاه : ٥٧٦ — ٦٠٥ هـ = ١١٨٠ — ١٢٠٨ م .

٢ — معز الدين محمود بن سنجر(١) : ٦٠٥ — ٦٣٩ هـ = ١٢٠٨ — ١٢٤١ م .

٣ — مسعود بن محمود : ٦٣٩ — ٦٤٨ هـ = ١٢٤١ — ١٢٥٠ م .

سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) حكم الأيوبيين .

---

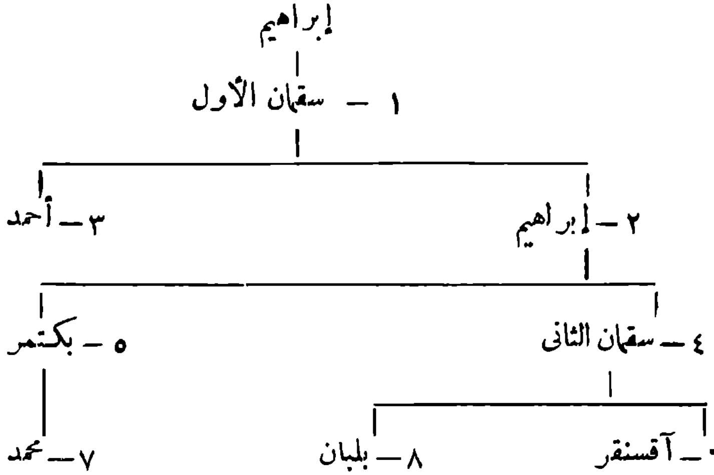
(١) يلاحظ أن معز الدين محمود بن سنجر ، كان تابعا للأيوبيين . انظر

Zambour: Manuel de Généalogie et de chronologie, p. 226.

Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

١٤ ـ أتابكة أرمينية

٤٩٣ — ٦٠٤هـ = ١١٠٠ — ١٢٠٧م



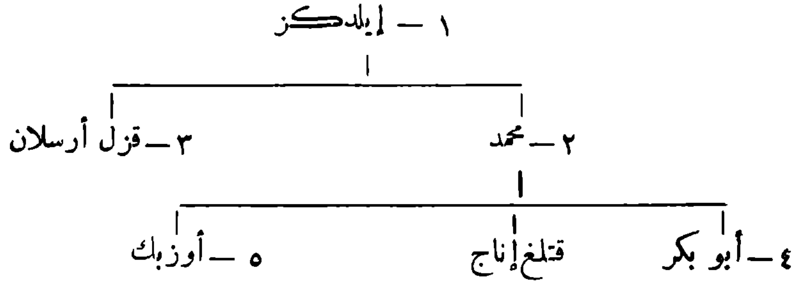
١ — سقمان القطبى : ٤٩٣ — ٥٠٦ هـ = ١١٠٠ — ١١١٢ م .
٢ — ظهير الدين إبراهيم : ٥٠٦ — ٥٢١ هـ = ١١١٢ — ١١٢٧ م .
٣ — أحمد بن سقمان : ٥٢١ — ٥٢٢ هـ = ١١٢٧ — ١١٢٨ م .
٤ — ناصر الدين سقمان الثانى : ٥٢٢ — ٥٨١ هـ = ١١٢٨ — ١١٨٥ م .
٥ — سيف الدين بكتمر (١) : ٥٨١ — ٥٨٩ هـ = ١١٨٥ — ١١٩٣ م .
٦ — بدر الدين آقسنقر : ٥٨٩ — ٥٩٤ هـ = ١١٩٣ — ١١٩٨ م .
٧ — الملك المنصور محمد : ٥٩٤ — ٦٠٣ هـ = ١١٩٨ — ١٢٠٦ م .
٨ — عز الدين بلبان : ٦٠٣ — ٦٠٤ هـ = ١٢٠٦ — ١٢٠٧م .

سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) : حكم الأيوبيين

(١) حدد ستانلى لينپول سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) كبداية لحكم بكتمر وهذا خطأ . انظر ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

١٥ — أتابكة أذربيجان

٥٣١ — ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ — ١٢٢٥ م

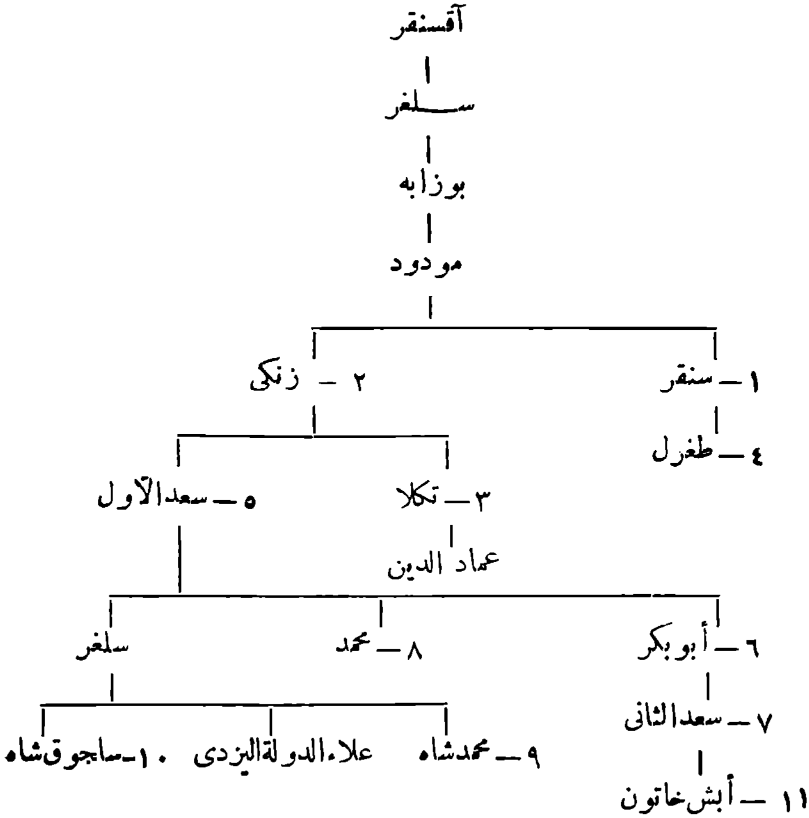


١ — شمس الدين إيلدكز : ٥٣١ — ٥٦٨هـ = ١١٣٦ — ١١٧٢ م .
٢ — شمس الدين أبو جعفر محمد جهان پهلوان : ٥٦٨ — ٥٨١هـ = ١١٧٢ — ١١٨٥م .
٣ — مظفر الدين قزل أرسلان عثمان : ٥٨١ — ٥٨٧ هـ = ١١٨٥ — ١١٩١ م.
٤ — نصرة الدين أبو بكر : ٥٨٧ — ٦٠٧ هـ = ١١٩١ — ١٢١٠م .
٥ — مظفر الدين أوزبك : ٦٠٧ — ٦٢٢ هـ = ١٢١٠ — ١٢٢٥م .

سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧م) : حكم الخوارزميين .

١٦ — اتابكة فارس

٥٤٣ — ٦٨٦هـ = ١١٤٨ — ١٢٨٧م

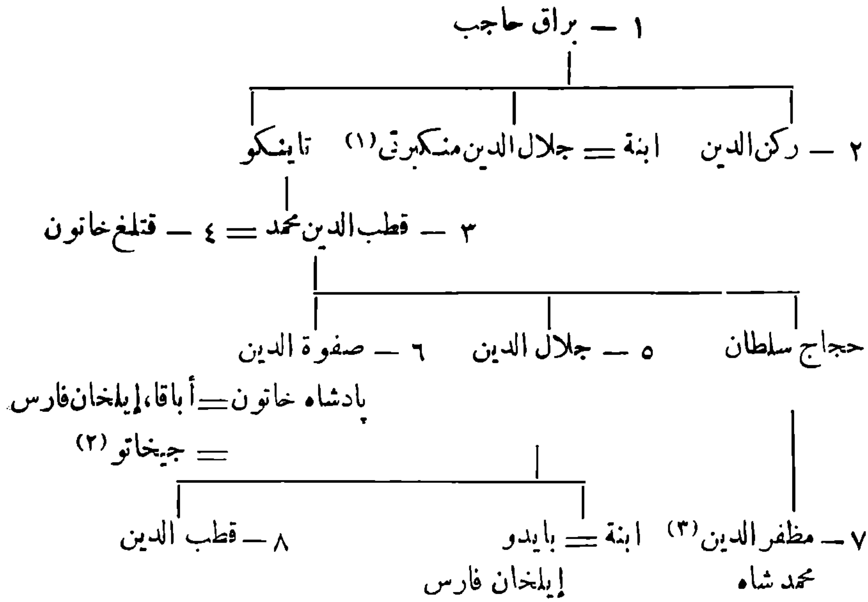


١ — مظفر الدين سنقر بن مودود : ٥٤٣ — ٥٥٦ هـ = ١١٤٨ — ١١٦٠ م .
٢ — مظفر الدين زنكى بن مودود(١) : ٥٥٦ — ٥٧٠ هـ = ١١٦٠ — ١١٧٤ م .
٣ — تكلا بن زنكى : ٥٧٠ — ٥٩٠ هـ = ١١٧٤ — ١١٩٣ م .
٤ — طغرل بن سنقر : ٥٩٠ — ٥٩٩ هـ = ١١٩٣ — ١٢٠٢ م .
٥ — سعد الأول بن زنكى : ٥٩٩ — ٦٢٣ هـ = ١٢٠٢ — ١٢٢٥ م .
٦ — أبو بكر بن سعد : ٦٢٣ — ٦٥٨ هـ = ١٢٢٥ — ١٢٥٩ م .
٧ — سعد الثانى بن أبى بكر : ٦٥٨ هـ (٢) = (١٢٥٩ م) .
٨ — محمد بن سعد الأول : ٦٥٨ — ٦٦٠ هـ = ١٢٥٩ — ١٢٦١ م .
٩ — محمد شاه بن سلغرشاه : ٦٦٠ — ٦٦١ هـ = ١٢٦١ — ١٢٦٢ م .
١٠ — سلجوق شاه بن سلغرشاه : ٦٦١ — ٦٦٣ هـ = ١٢٦٢ — ١٢٦٤ م .
١١ — أبش خاتون بنت سعد الثانى : ٦٦٣ — ٦٨٦ هـ = ١٢٦٤ — ١٢٨٧ م .
سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) : حكم المغول .

(١) كان تابعا لأرسلان بن طغرل السلطان السلجوقى .
(٢) توفى سعد الثانى بعد اثنى عشر يوما من وفاة أبيه .

١٧ — أتابكة كرمان

٦١٩ — ٧٠٣ هـ = ١٢٢٢ — ١٣٠٣ م



١ — براق حاجب، قتلغ خان	: ٦١٩ — ٦٣٢ هـ = ١٢٢٢ — ١٢٣٤ م.
٢ — ركن الدين حجة الحق	: ٦٣٢ — ٦٥٠ هـ = ١٢٣٤ — ١٢٥٢ م.
٣ — قطب الدين محمد	: ٦٥٠ — ٦٥٥ هـ = ١٢٥٢ — ١٢٥٧ م.
٤ — قتلغ تركان خاتون	: ٦٥٥ — ٦٨١ هـ = ١٢٥٧ — ١٢٨٢ م.
٥ — جلال الدين بن محمد	: ٦٨١ — ٦٩٣ هـ = ١٢٨٢ — ١٢٩٣ م.
٦ — صفوة الدين پادشاه خاتون بنت محمد	: ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ = ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م.
٧ — مظفر الدين محمد شاه	: ٦٩٤ — ٧٠١ هـ = ١٢٩٤ — ١٣٠١ م.
٨ — قطب الدين شاه جهان	: ٧٠١ — ٧٠٣ هـ = ١٣٠١ — ١٣٠٣ م.

سنة ٧٠٣ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٣ — ١٣٤٠ م : حكم المغول.

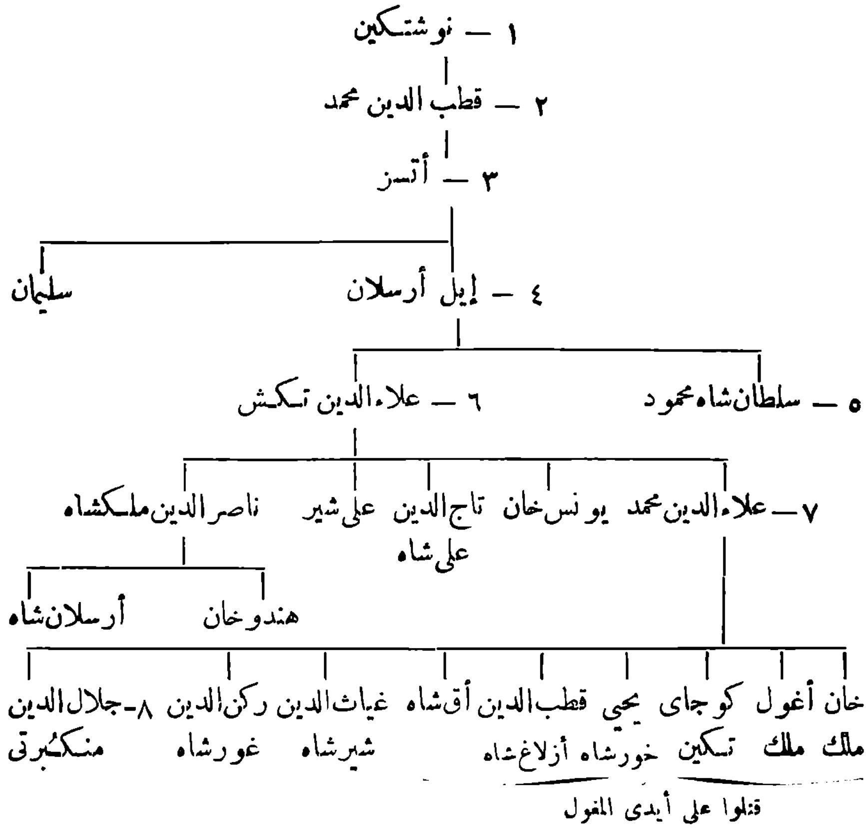
---

(١) يلاحظ أن علامة « = » معناها الزواج من .

(٢) يكتب هذا الاسم فى المراجع الفارسية گيخاتو ، وفى بعض المراجع العربية كيخاتو .

(٣) يسمى أيضا جلال الدين .

١٨ — شاهات خوارزم



١ — نوشتكين : ٤٧٠ — ٤٩٠هـ = ١٠٧٧ — ١٠٩٦م .

٢ — قطب الدين محمد : ٤٩٠ — ٥٢١هـ = ١٠٩٦ — ١١٢٧م .

٣ — أتسز : ٥٢١ — ٥٥١هـ = ١١٢٧ — ١١٥٦م .

٤ — إيل أرسلان : ٥٥١ — ٥٦٨هـ = ١١٥٦ — ١١٧٢م .

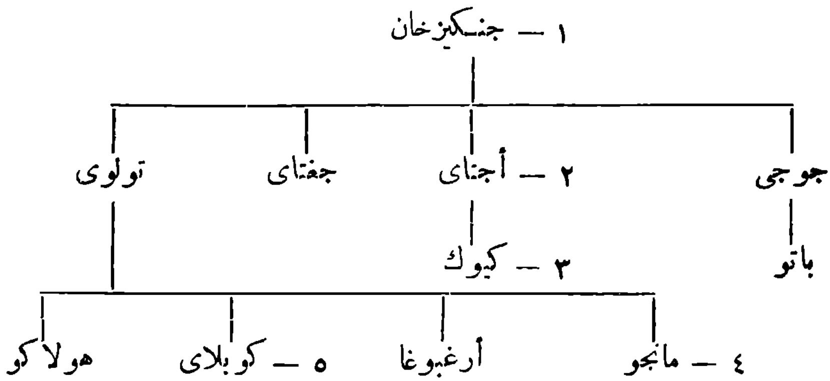
٥ — سلطان شاه محمود : عزل سنة ٥٦٨هـ = ١١٧٢م .
وتوفى سنة ٥٨٩هـ = ١١٩٣م .

٦ — علاء الدين تكش : ٥٦٨ — ٥٩٦هـ = ١١٧٢ — ١١٩٩م .

٧ — علاء الدين محمد : ٥٩٦ — ٦١٧هـ = ١١٩٩ — ١٢١٩م .

٨ — جلال الدين منكبرتى : ٦١٧ — ٦٢٨هـ = ١٢١٩ — ١٢٣١م .

١٩ ـ خانات المغول منذ جنكيزخان حتى كوبلاى خان (١)



١ ـ جنكيزخان : ٦٠٣ ـ ٦٢٤هـ = ١٢٠٦ ـ ١٢٢٧م .

٢ ـ أجتاى : ٦٢٤ ـ ٦٣٩هـ = ١٢٢٧ ـ ١٢٤١م .

٦٣٩ ـ ٦٤٤هـ = ١٢٤١ ـ ١٢٤٦م .

حكم تركينا Turakina أرملة أجتاى .

٣ ـ كيوك : ٦٤٤ ـ ٦٤٦هـ = ١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م .

٤ ـ مانجو : ٦٤٦ ـ ٦٥٨هـ = ١٢٤٨ ـ ١٢٥٩م (٢)

٥ ـ كوبلاى : ٦٥٨ ـ ٦٩٥هـ = ١٢٥٩ ـ ١٢٩٥م .

---

(١) يلاحظ أن خانات المغول كانوا يتولون الحكم فى الفترة التى نتحدث عنها بطريق الانتخاب لا بطريق الوراثة ، ولذا كانت تمر فترة من الوقت قبل أن يجتمع كبار القواد والأمراء المغول المنتشرون فى أطراف الإمبراطورية المغولية لانتخاب الخاقان الجديد ، فإذا ما تكامل عددهم أجريت عملية الانتخاب فى مجلس عام يعقد لهذا الغرض يسمى الكورلتاى (القورلتاى) Kuriltaï . وقد درجنا فى الجدول السابق على اعتبار الفترة التى تمر بين وفاة الخاقان وانتخاب الخاقان الجديد ضمن حكم ثانيهما . ويمكننا ترتيب هذا الجدول حسب تاريخ انتخابهم ، وعلى هذا الأساس يرتب كما يأتى :

١ ـ جنكيزخان : ٦٠٣ ـ ٦٢٤هـ = ١٢٠٦ ـ ١٢٢٧م .

٢ ـ أجتاى : ٦٢٦ ـ ٦٣٩هـ = ١٢٢٩ ـ ١٢٤١م .

٣ ـ كيوك : ٦٤٤ ـ ٦٤٦هـ = ١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م.

٤ ـ مانجو : ٦٤٩ ـ ٦٥٨هـ = ١٢٥١ ـ ١٢٥٩م.

٥ ـ كوبلاى : ٦٥٩ ـ ٦٩٥هـ = ١٢٦٠ ـ ١٢٩٥م.

(٢) ذكر ستانلى لينبول فى كتابه The M. Dynasties ص ٢١٢ ، أن مانجوخان توفى سنة ١٢٥٧م (٦٥٥هـ) وهذا خطأ ، إذ الحقيقة أنه توفى سنة ١٢٥٩م (٦٥٨هـ) ، يؤيد هذا ما جاء فى المراجع الصينيـة المعروفة باسم T'ung kien kang mu ، Yüan shi.

انظر Bretschneider ج ١ ص ١٥٨ ، حاشية ٤١٨ .

المصادر العربية

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ ﻫ = ١٢٣٢ م) .

(١) الكامل فى التاريخ (الطبعة الأزهرية ، ١٣٠٢ ﻫ = ١٨٨٤ م) .

(٢) تاريخ الدولة الأتابكية — ملوك الموصل . (طبعة Rec. Hist. Or. Cr. t. i) .

البندارى :

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق . (القاهرة ، ١٣١٨ ﻫ = ١٩٠٠ م) .

حافظ أحمد حمدى :

(٤) الدولة الخوارزمية والمغول . (القاهرة ، ١٣٦٨ ﻫ = ١٩٤٩ م) .

(٥) المغول والعالم الإسلامى ؛ بحث فى كتاب « مجموعة الإذاعات الثقافية » نشرته وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٤٧ .

حسن ابراهيم حسن ، دكتور :

(٦) النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن . (القاهرة ، ١٣٥٨ ﻫ — ١٩٣٩ م) .

(٧) تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ . (القاهرة ، ١٣٦٥ﻫ = ١٩٤٥م) .

(٨) » » » ، ج ٣ . (القاهرة ، ١٣٦٦ﻫ = ١٩٤٦م) .

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ ﻫ = ١٤٠٥ م) .

(٩) العبر وديوان المبتدا والخبر . (القاهرة ، ١٢٨٤ ﻫ = ١٨٦٧ م) .

ابن خلكان : (+ ٦٨١ ﻫ = ١٢٨٢ م) .

(١٠) وفيات الأعيان . (بولاق ، ١٢٨٣ ﻫ = ١٨٦٦م) .

الديار بكرى : (+ ٩٦٦ ﻫ = ١٥٥٨ م) .

(١١) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس . (القاهرة ، ١٢٨٣ﻫ = ١٨٦٦م) .

رضا زاده شفق ، دكتور :

(١٢) تاريخ الأدب الفارسى . نقله من الفارسية إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م) .

زكى محمد حسن ، دكتور :

(١٣) فنون الإسلام . (القاهرة ، ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م) .
(١٤) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى . (القاهرة ، ١٣٥٥ هـ = ١٩٤٠ م) .
(١٥) الصين وفنون الإسلام . (القاهرة ، ١٣٦٠ هـ = ١٩٤١ م) .
(١٦) التصوير فى الإسلام عند الفرس . (القاهرة ، ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م) .
(١٧) التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ؛ بحث فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

السيوطى : (+ ٩١١ هـ — ١٥٠٥ م) .

(١٨) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .
(القاهرة ، ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م) .

ابن شاكر الكتبى : (+ ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م) .

(١٩) فوات الوفيات . (القاهرة ، ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م) .

أبو شامة : (+ ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م) .

(٢٠) تراجم رجال القرنين السادس والسابع . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م) .

ابن طباطبا :

(٢١) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية .
(القاهرة ، ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

عبد الوهاب عزام ، دكتور :

(٢٢) الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والإسلام ؛ بحث فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

ابن العبرى : (+ ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) .

(٢٣) تاريخ مختصر الدول . (بيروت ، ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م) .

على ابراهيم حسن ، دكتور :

(٢٤) مصر فى العصور الوسطى . (القاهرة، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م) .

(٢٥) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . (القاهرة، ١٣٦٧هـ=١٩٤٨م) .

ابن العميد : (+ ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) .

(٢٦) تاريخ المسلمين . (ليدن ، ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م) .

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) .

(٢٧) المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ، ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م) .

قدرى حافظ طوقان :

(٢٨) الأثر العلمى للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها ؛ بحث فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » هدية المقتطف فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

القلقشندى : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) .

(٢٩) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . (القاهرة ، ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م) .

ابن القلانسى : (+ ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) .

(٣٠) ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ، ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) .

(٣١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (القاهرة، ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) .

محمد جمال الدين سرور ، دكتور :

(٣٢) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره . (القاهرة، ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

(٣٣) دولة بنى قلاوون فى مصر . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م) .

المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) .

(٣٤) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة .
(القاهرة، ١٣٥٣ — ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ — ١٩٣٩ م) .

(٣٥) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .
(القاهرة ، ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م) .

النسوى : (+ ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) .

(٣٦) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . (باريس ، ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١ م) .

النظامى العروضى السمرقندى :

(٣٧) چهار مقاله ، نقله من الفارسية إلى العربية الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب . (القاهرة ، ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م)

ابن الوردى : (+ ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م) .

(٣٨) تتمة المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ، ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م) .

المصادر الأجنبية

Abulgasi:

1. Histoire Généalogique des Tatars. (Leyde, 1726)

Ameer Ali, Sayed:

2. A Short History of the Saracens. (London, 1916)

Arnold, T. W.:

3. The Preaching of Islam. (London, 1935)

Atiya, A. S.:

4. The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938)

Barker, E. :

5 The Crusades. (London, 1925)

Barthold :

6. Turkestan down to the Mongol Invasion. (London, 1928)

Blochet, E. :

7. Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed Din. (Leyden, 1910)

Boulger, D. C. :

8. The Mongols and the Court of Kublai Khan. (Universal History of the World, vol. 5. pp. 2847-2860)

Bretschneider, E. :

9. Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources. (St. Petersburg, 1887)

10. Recherches Archéologiques et Historiques sur Pékin et ses Environs. (Paris, 1879)

Browne, E. G.:

11. A Literary History of Persia. (London, 1906)

12. Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs. (London, 1906)

Cahun, L. :

13. Introduction à L'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols des origines à 1405. (Paris, 1896)

14. Gengis-Khan et L'Empire Mongol. (Lavisse et Rambaud : Histoire Générale, tom. ii, pp. 917-953) (Paris, 1893.)

Curtin, J. :

15. The Mongols' History. (Boston, 1908)

Czaplicka :

16. The Turks of Central Asia, in History and at the Present Day. (Oxford, 1918)

Defremery, M. :

17. Histoire des Seldjoukides; Extraits du Tarikhi Guzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi. (Journal Asiatique : Avril-Mai, 1848, pp. 417-468)
18. Histoire des Seldjoukides. (Suite) (Journal Asiatique : Septembre-Octobre, 1848, pp. 259-376)
19. Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits.(Journal Asiatique: Novembre-Décembre, 1849,pp.447-513)

De Guignes, J. :

20. Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux. (Paris, 1757)

D'ohsson, M. Le Baron :

21. Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan. (Paris, 1824)

Douglas, R. K. :

22. The life of Jenghiz-Khan, Translated from Chinese.(London,1877)
23. China, The Story of Nations. (London, 1912)
24. Jenghiz-Khan. (Encyclopædia Britannica, vol. 12, pp 1000-1001) (New York, 1929)

Dubeux. M. L. :

25. La Perse. (Paris 1841)

Eileen Power :

26. Medieval People. (London 1939)
27. The Guilds and Medieval Commerce. (Universal History of the World, vol. 5, pp. 2897-2926)

Fitzgerald :

28. China, A short Cultural History. (London, 1935)

Fraser, J. B. :

29. Historical and Descriptive Account of Persia. (London,1833)

Gibbon. E. :

30. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (New York, 1927)

Giles, A. H. :

31. The Civilization of China. (Cambridge, 1911)

Grenard, F. :

32. Gengis-Khan, (Paris, 1935)

33. Mongol Compaigns.

Hart, B. H. L. :

(Encyclopædia Britannica, vol. 15, pp. 705—7.) New York, 1929.

Heyd, W. :

34. Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. (Leipzig. 1886)

Hirth, J. :

35 China and the Roman Orient. (Leipsic, 1885)

Hirth & Rockhill, W. W. :

36. Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries. Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911)

Hitti, Philip :

37. The History of the Arabs, (London, 1937)

Howorth, H. H. :

38. History of the Mongols (London, 1876)

Huntington, E. :

39. The Pulse of Asia. (Washington, 1919)

Huzayyin, S. A. :

40. Arabia and the Far East. Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times. (Cairo, 1942)

Jacobs, Joseph :

41. The Story of the Geographical Discovery. How the World Became Known. (London)

Lamb, Harold :

42. Genghis-Khan ; The Emperor of All Men. (London, 1934)
43. The Crusades ; The Flame of Islam. (London, 1931)

Lane-Poole, Stanley :

44. History of Egypt in the Middle Ages .(London, 1925)
45. Mediæval India Under Mohammedan Rule. (London, 1917)
46. The Mohammadan Dynasties. (Paris, 1925)
47. Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo. (London, 1897)

Le Strange :

48. Baghdad During the Abbasid Caliphate. (Oxford 1900)

Little, A. :

49. The Far East. (Oxford, 1905)

Loewe, H. M. J. :

50. The Seljuqs.
(Cambridge Medieval History, vol iv. pp. 299 – 317). Cambridge, 1927.
51. The Mongols.
(Cambridge Medieval History, vol. iv. pp.627 – 652). Cambridge, 1927.

Malcolm, J. :

52. The History of persia, from the Most Early Period to the Present Time. (London, 1829)

Marcel, M. J. :

53. L'Egypte Depuis la Conquête Des Arabes Jusqu'a la Domination Française. (Paris 1848)

Muir, Sir William :

54. The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. (Edinburgh, 1924)

Nicholson, Reynold:

55. A Literary History of the Arabs. (London, 1923)

Nidhami-i-Arudi-i-Samarquandi :

56. The Chahàr Maquala. Translated by E. G. Browne. (London, 1899)

Nizam Al-Mulk :

57. Siyàsat Namah. (Paris, 1891)

Nöldéke, Theodor :

58. The Abbasids.
(The Historians' History of the World, vol. viii. pp. 209 – 232) (New York 1926)

Rashid-Eldin :

59. Histoire des Mongols de la Perse. Edit. par M.Quatremere.(Paris 1833

Reinaud et Favé M. M. :

60. Du Feu Grégeois, Des Feux De Guerre, et Des Origines De la Poudre a Canon chez les Arabes, les Persans, et les Chinois.
(Journal Asiatique : Octobre 1849, pp. 257—327)

Sanaullah, Mawlawi Fadil :

61. The Decline of the Saljùqid Empire. (Calcutta, 1938)

Ross, E. D. :

62. The Empire of the Seljuk Turks.
(Universal History of the World, vol. 5. pp. 2779 96)

Skrine, F. H. & Ross, E. D. :

63. The Heart of Asia. (London, 1899)

Stevenson, W. B. :

64. The Age of Eastern Imperialism : 1216—1303.
(Universal History of the World, vol. 5.)

Sykes, Sir Percy :

65. The Quest For Cathay. (London, 1936)
66. A History of Persia. (Oxford, 1922)

Vambery, A. :

67. History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present.
(London, 1873)

Vladimirtsov :

68. The Life of Chingis-Khan. (London, 1930)

Von Hammer :

69. Histoire de L'Ordre des Assassins. (Paris, 1833)

Wells, H. G. :

70. The Outline of History.

Wiet, Gaston :

71. Précis de l'Histoire d'Egypte. (Le Caire, 1932)

Zambour :

72. Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.
(Hanovre, 1927)

كشاف

١ — أسماء الرجال والنساء ، والقبائل والشعوب ، والفرق الدينية .

(ا)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

٢ — أسماء المدن ، والأقاليم ، والأنهار ، والبحار .

* ورد هذا الاسم فى بعض المراجع «شاهدز» . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٠

استدراك

رغم الجهد الذى بذل فى إخراج هذا الكتاب ، وقعت بعض الأخطاء المطبعية نعتذر للقارىء عنها وأرجو أن يتفضل بتصحيحها قبل قراءة الكتاب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦١	١٩	ابنى ملكشاه	ابنى محمد بن ملكشاه
٦٢	٧	بن السلطان محمود	بن السلطان محمد
١١٢	٧	لقاب	القب
١٢٩	١٨	يبن	بين
لوحة ١١		Wiset : Lampe	Wiet : Lampes
لوحة ١٥		Harol Lamb	Harold Lamb

THE EASTERN ISLAMIC TERRITORY BEFORE THE MONGOL INVASION

By

H. A. HAMDI

B.A., M.A.(Hons.), Dip. in Ed.

Published by

Dar El-Fikr El-Arabi, Cairo.

1950

AL-EETEMAD PRINTING PRESS, CAIRO.